الحرب على العراق

رؤية توراتية يهودية

تأليف

علي عبدالجليل علي



دار أسامة

الحرب على العراق ..
رؤية توراتية يهودية

تأليف
علي عبد الجليل علي

دار أسامة للنشر والتوزيع
الأردن - عمان

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن – عمان

هاتف : ٥٦٥٨٣٥٣ – فاكس : ٥٦٥٨٣٥٤ – تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧

ص. ب : ١٤١٧٨١

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٢٧٤ / ١٠ / ٢٠٠٣)

٩٥٦,٣

علي، علي عبد الجليل

الحـــرب علـــى العراق: رؤية توراتية يهودية/علي عبد الجليل علي.-عمان: دار أسامة للنشر، ٢٠٠٣.

( ) ص .

ر.إ :٢٢٧٤/١٠/٢٠٠٣.

الواصفات :/العراق//تاريخ العراق//الصهيونية/

تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

مقدمة:

عندما دقت طبول الحرب، وارتفع أزير الطائرات، وانهالت آلاف القنابل تدك البصرة وبغداد والموصل... ونشطت الآلة العسكرية الأنجلو أمريكية في تغيير معالم الخريطة، كان من الواضح أن ثمة مرجعية فكرية تقف خلف هذه الطبول، وأن لحنا قديما يعاد توزيعه ليتناغم مع هذا الأزيز، وأن آلية أيديولوجية تحرك هذه الآلة.

فمنذ آشور وبابل وصولا إلى حرب الخليج الثالثة لم تغب العراق (بلاد ما بين النهرين وبلاد الرافدين) عن الذاكرة اليهودية، بل كانت حاضرة في الاستراتيجية الإسرائيلية وحاضنة لتوجهاتها في المنطقة.

إنها توجهات رسمتها أسفار التوراة منذ مئات السنين وأعادت الشراكة الصهيوأمريكية صياغة هذه الأسفار بشكل عصري، بل في شكل مقلوب فمن سبي اليهود في بابل إلى سبي العراق في واشنطن .. إنها عقد التاريخ وترسبات الماضي البعيد التي تسيطر على الحدث الراهن وتحصره في دائرة الثأر.

ولهذا فقد قرأنا ذلك الحدث بعيون تاريخية ضاربة في عمق الماضي البعيد وممتدة إلى مئات السنوات قبل الميلاد، وربما راودتني في أثناء هذه القراءة مشاعر الإحباط والأسى، وثارت جملة تساؤلات في نفسي، لماذا نتعب أنفسنا في كتابة التاريخ الذي لا يقرأه متدبر، ونرهق أدمغتنا في اجترار حوادثه التي لا يقف عندها متأمل؟!

فالإشكالية- في تصوري- ليست في كتابة التاريخ أو في اجترار حوادثه أو ملء صفحاتنا بأيامه وشخوصه، بل الأصعب من ذلك وأكثر تعقيدا هو قراءة التاريخ واستنطاق أحداثه ومعايشة أيامه واستخلاص عبره من وسط عبراته، والوقوف على وهننا من عمق هناته.

ولذلك نحن مدعون إلى ربط الآني بالماضي، وراهن الحدث بما قد حدث، فعندما ترصد بعض عبارات العهد القديم وتفتش في نصوصه لن تعجب كثيرا إذا وجدت ما دار على أرض الرافدين من تدمير وخراب شاهدناه وشهدنا عليه وسجلناه في صفحات الأسى والوهن والانتكاسة العربية، موجود هناك في صفحات التوراة في دعوات أشبه بالتحريض إن لم تكن هي التحريض ونداءات للثأر أشبه بالتقويض.

فعندما تنادي التوراة في المزمور (137) (يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءاك الذي جازيتنا طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة..) فلا عجب أن تسقط بغداد (بابل القديمة) كما سقطت أورشليم، ولا عجب أن تحاصر بابل التي حاصرتهم وأن يدمروا وجودها وهيكلها كما دمرت هيكلهم، وأن يسبوا أبناءها كما سبت أبناءهم.

ولا عجب أن تخرج إسرائيل/ الكيان رافعة راية النصر من حرب أوجدتها وأملتها بقناعة على الشريك الأمريكي وفرضت استحقاقاتها بفجاجة على العدو العربي وربما الشريك أيضا! أما الخاسر الأكبر في هذه الحرب فهو ذلك العقل العربي الذي وجد نفسه إزاء صدمات وانتكاسات وتراجعات كلما فك أسره من دائرة كبلته أخرى وكلما استفاق من هول مفاجأة أذهلته ثانية، حتى باتت الذهنية العربية سلبية الدور، تترك غيرها يرسم لها معالم وخرائط الطريق!!

وهذه الدراسة تحاول الإجابة عن تساؤل طرح فيما قبل الحرب وبعدها عن الدور اليهودي- سواء داخل الولايات المتحدة أو داخل الكيان الإسرائيلي- في تأجيج المشاعر ورفع رايات الحرب، وعن طبيعة المحركين للأحداث كما جرت وقائعها أمام العيون ووراء الستار.

ولذلك تطرقنا في الفصل الأول لطبيعة الدور الإسرائيلي في الحرب وموقع العراق في الاستراتيجية الإسرائيلية وكيف أن الكيان كان أحد أهم

المستفيدين من الحرب والاحتلال الأمريكي للعراق على الصعيد السياسي والاقتصادي.

وكان لابد من الولوج إلى قضية قديمة متجددة وهي العلاقة الأمريكية الإسرائيلية المتجذورة والممتدة إلى عمق تاريخ الولايات المتحدة الحديث، وذلك ما تناولناه في الفصل الثاني، وربما كان رصد علاقات الكثير من رؤساء الولايات المتحدة بإسرائيل وصولا إلى بوش الابن هو المقياس الذي يسهل التعرف من خلاله على متانة وقوة هذه العلاقات وتخطيها حدود المصالح السياسية والاستراتيجية إلى الاتفاق الأيديولوجي والديني.

وهذه القراءة ستجعلنا لا نحس بالدهشة من الانحياز الأمريكي الواضح والسافر للكيان الإسرائيلي على حساب القضية الفلسطينية بل وكل القضايا العربية والإسلامية التي علق فيها وما زال الكثير من العرب والمسلمين آمالا عريضة على التدخل الأمريكي.

ثم تجرنا سلسلة هذه العلاقات إلى إدارة (بوش الابن) الرئيس الحالي للولايات المتحدة ودورها في طرح فكرة الحرب على العراق، وهذه الإدارة كانت ثمرة طبيعية ونتاج منطقي لتطور الدور اليهودي واليمين المسيحي المتشدد ونفوذهما داخل الولايات المتحدة، ليس على عتبات البيت الأبيض بل وفي أروقته ودهاليزه وربما غرف نومه، مرورا بوسائل الإعلام ومعاهد البحوث والدراسات ووصولا إلى عملية الانتخابات الرئاسية وغير الرئاسية.

وهذا ما طرحناه في الفصل الثالث الذي تحدث عن البيئة الفكرية والسياسية للمحافظين الجدد الذين خططوا للحرب على العراق وكيف أنهم تغلغلوا في بنية المجتمع الأمريكي وحركوا قطاعات هامة ومفصلية من نظامه السياسي والإعلامي والاجتماعي.

ثم خصصنا الفصل الرابع للحديث عن أهم شخصيات تيار المحافظين الجـدد وأهم وسائلهم وآلياتهم وطرقهم التي أوصلت الولايات المتحدة في نهاية الأمر لإعـلان الحرب ولاحتلال العراق. ثم يأتي الفصل الخامس ليتحدث عن نصوص التـوراة وكيـف نظـرت إلى العـراق (أرض بابـل وبـلاد الرافـدين) وتـأثير هـذه النصـوص عـلى القـرار السياسي والعسكري الأمريكي والإسرائيلي على السواء.

ونختم هذه الدراسة برؤية عربية تحاول النفاذ من الأزمة التي يعـيش فيهـا الفكر العربي بعد الحرب على العراق وما خلفته من آثار مؤلمة ونتائج مدمرة.

راجين المولى عز وجل أن ينتفع بهذه الدراسة كـل مـن يحـاول تفهـم الواقـع الراهن، وعلى اللـه قصد السبيل.

المؤلف

الفصل الأول

الدور اليهودي...
الظاهر والمستور

الفصل الأول

*****الدور اليهودي .. الظاهر والمستور:**

لم يعد مثيرا للدهشة والاستغراب أن تظهر إسرائيل في كل حدث سياسي أو عسكري أو اقتصادي أو ثقافي.. يلقي بظلاله على منطقة الشرق الأوسط- ولا نبالغ إذ قلنا العالم كله- بل إن المثير للدهشة حقا أن تظهر على مسرح الأحداث، صحيح أن ظهرها يختلف من مشهد لآخر في فصول العروض المسرحية التي أصبحنا نشاهدها ومن عجب أننا نصفق لها في أحيان كثيرة.

فالحضور اليهودي كان سيد المشاهد على قصره وخفائه هنا أو امتداده وفجاجته هناك فمن الظهور العلني والمتكرر في قضايا فلسطين وسوريا ولبنان إلى الظهور المستتر في جبال كابول وتورا بورا إلى الحضور التوراتي والتاريخي والسياسي والعسكري أيضا في حرب تدمير العراق وفي مسرحية إعمار العراق بل والمشاركة في إدارتها بشكل أو بآخر.

ولم يكن ذلك الدور- خاصة في حرب العراق الأخيرة- ملفتا لنظر العرب فقط (بعض الساسة وكثير من المثقفين) ولكنه في الوقت نفسه قد أثار انتباه عدد من المفكرين الغربيين في أوروبا وفي أمريكا ذاتها، فقد أثار وجود شراكة بين الولايات المتحدة وإسرائيل في حرب العراق جدلا حقيقيا في هذه الأوساط الإعلامية والثقافية، وفي بعض جلسات الكونجرس أيضا، وهذا ما أثارته كبريات الصحف الأمريكية مثل (البوست) أو جريدة (نيويورك تايمز) انظر عددها بتاريخ (2003/3/9) قبل اندلاع الحرب بأيام.

فلم تكن تلك التساؤلات التي أثيرت حول علاقة اليهود والكيان الإسرائيلي بالحرب الأمريكية على العراق مجرد هواجس عربية أو إمعانا في نظرية التآمر التي يرفضها البعض، بل إن هذه التساؤلات قد طرحت بأشكال مختلفة في أمريكا وفي أوروبا.

فقد أثار جيمس موران النائب الديمقراطي من ولاية فرجينيا عاصفة من الانتقادات في فبراير (2003م) عندما انتقد اتجاه أمريكا الجارف نحو الحرب واعتبر تلك الخطوات جاءت بتأييد وتخطيط من الجالية اليهودية، والملفت للنظر أن البيت الأبيض وبعض أعضاء في الكونجرس الأمريكي قد نددوا بهذه التصريحات، ولذلك عاد جيمس موران وسحب كل ما طرحه واعتذر عنه أيضا.

وربما نستخلص من هذه الحادثة دلالتين، الأولى في مصداقية ما تم تداوله من وجود دور يهودي وإسرائيلي واضح في الحرب على العراق، والدلالة الثانية هو قوة تيار المؤيدين لإسرائيل في أمريكا من اليهود وغير اليهود الذين شكلوا جبهة ضغط على موران وجعلوه يعتذر عما قاله!!

ولذلك فإن عبارة (الحرب من أجل إسرائيل) كانت نظرية تتحرك في الخفاء ويتم تداولها في السر بين الحين والآخر خوفا من قوة التيار المؤيد لإسرائيل والذي يرصد بكل دقة وسرعة ما يخالف اتجاهه ومخططاته، لكن هذا لم يمنع تلك النظرية أن تتدحرج ولو قليلا داخل أروقة الصحافة الأمريكية.

فقد طرح المعلق والصحفي الأمريكي لورانس كابلان من جريدة (البوست) في شهر مارس (2003م) هذه القضية متسائلا: (كيف وصلت إدارة بوش إلى حافة الحرب مع صدام حسين وإلى أي مدى لعب النفوذ الإسرائيلي دورا لوصول الوضع إلى هذا الحد.. سؤال مشروع يمكن أن تثير الإجابة عنه خلافا..).

والجملة الأخيرة من عبارة كابلان كانت عبارة دبلوماسية أكثر من اللازم، لأن هذا التساؤل لا يثير في الأوساط العربية مجرد الخلاف بل يثير القلاقل والإشكاليات والضغوط لدرجة أنها من الممكن أن تعد من المقدسات التي يحرم فيها الكلام والبحث مثلما حدث مع قضية المحرقة أو الهولوكست في العهد النازي.

وعلى الرغم من كل ذلك يتم تداول هذه النظرية على استحياء وهذا ما طرحه الكاتب بيل كيلر في جريدة (نيويورك تايمز) في نفس الفترة بتاريخ (2003/3/9م) حيث أكد على أن (النظرية تستحق شيئا من الاهتمام لأن فكرة الحرب من أجل إسرائيل تنتشر أكثر مما نتصور.. ونبتت من بذرة من الحقيقة ..).

أما نحن فقد أخذنا هذه البذرة من الحقيقة التي أشار إليها الكاتب الأمريكي بيل كيلر وتتبعناها كثيرا حتى وجدناها تنمو لتصبح غرسا شيطانيا يلتف بأغصانه وفروعه كالأخطبوط وأدركنا- بما يصل إلى اليقين- أن اليهود والكيان الإسرائيلي قد أعد العدة وهيأ التربة وهو الآن يجني الثمار في موسم الحصاد.

***إسرائيل مرحلة الإعداد .. وموسم الحصاد:

قبل أن تحصد لابد أن تزرع، مقولة يعرفها الجميع ويجزم بمنطقيتها، وهي مقولة تتحول بفعل الأحداث إلى ركن قوي من أركان الاستراتيجية الإسرائيلية، وتلك سمة بارزة من سمات الشخصية اليهودية على مر التاريخ أنها تتغلغل بهدوء وبروية حتى تصل في النهاية إلى أهدافها[1].

والعراق ذلك البلد الثري الذي يفيض بثرواته ويتميز بعمق تاريخه كان له مكانا بارزا في الفكر اليهودي القديم والحديث على السواء وسوف نفرد فصلا خاصا عن موقع العراق في الذهنية اليهودية التوراتية، لكننا هنا سنبدأ من الوقت الراهن لنرى إلى أي مدى استفادت إسرائيل واستثمرت الحرب الأمريكية البريطانية على العراق.

***العراق في الاستراتيجية الإسرائيلية الحديثة:

إذا كانت العمليات العسكرية قد بدأت في العراق يوم الأربعاء في التاسع عشر من مارس عام (2003م) وعلى وجه الدقة في الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة فجر الخميس (20مارس) بتوقيت بغداد، عندما انهالت صواريخ كروز توماهوك على بغداد عاصمة الرشيد، والتي سقطت في التاسع من إبريل (2003م) بعد أقل من شهر، فإن هناك عمليات أخرى سبقتها بعشرات السنوات تمهد للوضع الراهن وتتكهن به.

فالملف العراقي كان مطروحا وبشدة على ذهنية القادة اليهود منذ مرحلة الإعداد لقيام الكيان الإسرائيلي في فلسطين وحتى بعد قيامه، وذلك بأشكال مختلفة ربما نستدعي منها قضية إعادة ترحيل الفلسطينيين المبعدين وتوطينهم في العراق.

وهو مشروع قديم متجدد طرح في أكثر مـن مناسـبة ولا نسـتغرب إذا أعيـد طرحه في الوقت الراهن، فقد طرح هذا المشروع دافيد بن جوريـون مـرتين علىالأقـل كانت الأولى من خلال مذكرة بعث بها إلى اجتماع لجنة الأعمال الصـهيونية المنعقـدة في بريطانيا بتاريخ (1937/12/17م) وطالب فيها بريطانيا التي كانـت تحتـل العـراق في هذا الوقت أن تساعده في ترحيل وتوطين آلاف الفلسطينيين إلى العراق.

وربما يعيدنا هذا الموقف من بن جوريون إلى ما حـدث في السـاحة العراقيـة الراهنة حيث من الممكن الربط بين الراهن والمـاضي، فالحركـة الصـهيونية اسـتفادت من القوى الاستعمارية التي كانت مسيطرة في ذلك الوقت وأبرزها بريطانيا وهـو مـا تفعله الآن عندما تستفيد بكل الطرق من الولايات المتحدة.

يضاف إلى ذلك أن الحركة الصهيونية كانت على استعداد لتقديم مبالغ مالية في سبيل تنفيذ هذا المخطط، وهذا ما أشارت إليه مذكرة بـن جوريـون حيـث تقـول: (سنعرض على العراق عشرة ملايين جنيـه في مقابـل إعـادة تـوطين مائـة ألـف عائلـة عربية من فلسطين في العراق..).

ولعلنا نلاحظ أن هذه المحاولة وذلك الطرح كان سابقا بمراحل لقيـام الكيـان الإسرائيلي في فلسطين تحسبا لما يمكن أن يحدث، ثم طرحت نفس الفكرة مـرة أخـرى على يد بـن جوريـون أيضـا مـن خـلال العـرض الـذي قدمـه إلى رئـيس وزراء فرنسـا جي موليـه بتـاريخ (1956/10/22م) وأشـار فيـه بـن جوريـون إلى أن الأردن ككيـان جغرافي لا يستوعب المشروع وأن على العراق أن تستقبل آلاف الفلسطينيين في مقابل أن تضم إليه مناطق شرق نهر الأردن.

وربما أتاحت الظروف والمتغيرات في ذلك الوقت لبروز هذه الأفكار فقد كـان الوطن العربي مستباحا وقابلا للتقسيم منذ ايكس بيكو ووعـد بلفـور وحتـى قـبلهما بكثير، فلا نستغرب أن تمتد اليد الصهيونية بمشرط الجـراح لتقطـع أوصـال الـوطن أو ترسم حدوده بما يتناسب معها!!

لكن الملفت أن مشروع تـوطين الفلسـطينيين في العـراق كـان يطـرح بشـكل متكرر وعلى أكثر من صعيد، وهذا ما أورده يوسف فايتس في يومياته والذي كان

مديرا لدائرة الأراضي التابعة للصندوق القومي للكيان الإسرائيلي، حيث طالب في تلك اليوميات بتاريخ (1940/12/20م) بترحيل الفلسطينيين إلى الدول المجاورة كسوريا والعراق والأردن، وطالب أيضا برصد أموال تساعد على تحقيق هذا الغرض واعتبر أن ذلك يعد حلا لمشكلة المهاجرين اليهود.

ويبدو أن الحكومة البريطانية قد استجابت لهذه المساعي وأخذت تلك الأفكار على محمل الجد وبدأت في دراسة وتنفيذ المشروع على اعتبار أن العراق بلد غني بخيراته وثرواته وذلك يعد مبررا لانتقال اللاجئين الفلسطينيين إليه، لكن هذا المشروع قد ظهر بشكل قوي في سوريا والأردن ولبنان.

على أن ما يمكن أن نستخلصه من هذه الأفكار وتلك المشاريع هو أن الملف العراقي كان مرتبطا بشكل أو بآخر بما يحدث في فلسطين، وهذا ما صرح به دوجلاس فيث وكيل وزارة الدفاع في فبراير (2003م) حيث أكد على أن إقامة ديمقراطية في العراق ربما يساعد على تولي زعماء فلسطينيين قد ترغب إسرائيل في الحديث معهم هذا ظاهر ما قاله فيث لكنه يقصد أن التحكم في العراق أمريكيا سيساعد بشكل كبير في تغيير معالم المرحلة المقبلة في فلسطين لصالح إسرائيل.

وما يحدث الآن يشير إلى أكثر من علامة استفهام ويثير أكثر من علامة تعجب، فقد تخطى الأمر قضية توطين الفلسطينيين في العراق الذي طرح سابقا إلى المطالبة بوجود دور يهودي مباشر في العراق وذلك من خلال اليهود القلائل الذين ما زالوا في العراق أو الإسرائيليين من أصل عراقي.

فقد أشارت جريدة (يديعوت أحرنوت) في عددها بتاريخ (2003/6/22) إلى أن جيف كي مبعوث الوكالة اليهودية لجلب اليهود المستعمرين إلى فلسطين قام بزيارة إلى العراق للاطلاع على أحوال اليهود العراقيين بعد الحرب، ولن نخوض هنا في تاريخ أو دور اليهود في العراق لأن هذه القضية قد فصلناها في سياق كتابنا التغلغل الصهيوني في الثقافة العربية وأشرنا فيها إلى ما قام به اليهود في العراق من جهود أسهمت في دفع الحركة الصهيونية وتحقيق أهدافها.

لكن ما يجب أن نشير إليه هو أن عدد اليهود المقيمين في العراق- حسبما تقدرهم وسائل الإعلام الإسرائيلية- يقدر بحوالي أربعين شخصا كانوا يتجمعون في بغداد بجوار الكنيس الوحيد الذي ما زال مفتوحا، وقد رحل ستة من هؤلاء إلى الكيان الإسرائيلي بعد سقوط بغداد، وتعد نسبة الأولاد في هذه الجالية معدومة فآخر عقد زواج كان سنة (1978م).

أما المخطط الجديد الذي يطرح على الساحة الإسرائيلية فهو الاستفادة من هؤلاء اليهود العراقيين، ليس هذا العدد القليل الموجود في العراق فقط بل كل اليهود من ذوي الأصل العراقي، فهناك سعي دؤوب لتنفيذ هذا المخطط وإعادة اليهود العراقيين إلى بيوتهم التي هاجروا منها بعد قيام الكيان عام (1948م)، ولهذا فالعديد من الفرق والخبراء الإسرائيليين يتجولون في العراق بداية من الشمال استعدادا لإعادة اليهود الأكراد إلى المنطقة ليصل عددهم كما هو مخطط خلال أربعة سنوات إلى ثلاثين ألف يهودي، والبعض من هؤلاء سيعود إلى أور وبابل.

ودلالة هذه الأسماء ستتضح أكثر عندما نتحدث عن العراق كما هو في الذهنية التوراتية لليهود، وما يهمنا الآن أن المخطط قد وضع موضع التنفيذ حيث بدأت عمليات شراء واسعة للأراضي في مناطق مختلفة من العراق وفي الشمال تحديدا لتحويلها فيما بعد إلى مستعمرات يهودية، وكل ذلك يحدث بحماية ودعم من القوات الأمريكية وللأسف من بعض أكراد العراق الذين يقدمون تسهيلات كبيرة لإسرائيل.

ويبدو أن أحلام اليهود القديمة في العراق قد استيقظت وربما تحققت، وما يؤكد ذلك بروز سيناريو اليهود العراقيين وعودتهم أو حصولهم على حقوقهم المزعومة، فقد ذكرت مجلة (ماريان) الفرنسية الأسبوعية بتاريخ (2003/6/24) أن نحو ثلاثمائة ألف يهودي من أصول عراقية يعيشون حاليا في إسرائيل إلى جانب خمسة وأربعين ألف يهودي عراقي يعيش معظمهم في أمريكا وكندا.

والمفارقة أن هذه الأعداد تعتزم إقامة إجراءات قضائية للحصول على تعويضات مقابل ما فقدوه من ممتلكات في العراق بعد الهجرة، وحسبما أشارت المجلة

أنهم سيطالبون بأكثر من مليار دولار تعويضا لهم عما خسروه أو ما تركوه من ممتلكات بعد حرب (1948م).

فالاستراتيجية الإسرائيلية الآن تكرر وتعيد ما حدث بعد هزيمة ألمانيا النازية وحصولها على تعويضات هائلة نتيجة الهولوكوست المبالغ فيه، لكن المثير للدهشة وربما السخرية أن هذه الأموال التي يطالب بها يهود العراق ستدفع من حق الشعب العراق وثرواته أو بالأحرى ستنهب وتسلب في وقت يعاني فيه هذا الشعب في الحصول على أدنى مطالبه وحقوقه!!

والطريف الذي أثار دهشتنا- وإن لم يعد مكان للدهشة- هو مطالبة بعض اليهودي بالاشتراك في حكم العراق، فقد طالبت ناجية صبري وهي يهودية عراقية بتمثيل اليهود العراقيين في مجلس الحكم الانتقالي الذي تم اختياره من قبل الإدارة الأمريكية في يوليو (2003م)، حيث ذكرت ناجية صبري تلك الأفكار في حديث لها مع صحيفة (التآخي) الناطقة باسم (الحزب الديمقراطي الكردستاني) الذي يتزعمه مسعود البرزاني.

فقد أعربت عن رغبة الطائفة اليهودية العراقية في أن تشارك في حكم العراق لأن ذلك في رأيها حق لليهود الذين هم عراقيون مثل غيرهم طبقا للدستور خاصة وأن المجلس الانتقالي يضم بين صفوفه طوائف عديدة مثل التركمان والمسيحيين!! فمن حق اليهود بناء على ذلك تشكيل حزب والمشاركة في المجلس الجديد!!

وبعيدا عن هذه الطرائف المثيرة للسخرية المريرة فإن كل هذه السيناريوهات القديمة منها والجديدة نظرت إلى العراق باستمرار على أنه من أهم مفاتيح الأبواب المغلقة في الشرق الأوسط، وهذا ما أكده التقرير الذي أعده معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية العليا في تل أبيب بالتعاون مع مركز السياسة الأمنية) في واشنطن، وقد صدر التقرير عام (1996م) بعنوان (استراتيجية إسرائيلية جديدة لعام 2000م) وقد رفع هذا التقرير وقتها إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي وزعيم الليكود بنيامين نتنياهو الذي كان منتخبا وقتها.

أما أخطر وأهم ما ورد في هذا التقرير فهي عبارة شهيرة جرى تداولها على أكثر من صعيد بل وتم تنفيذها فيما بعد وهي أن الطريق إلى الشرق الأوسط يمر ببغداد وتعني العبارة أن رسم سياسة المنطقة وتغيير معالمها بما يتناسب مع وجهة النظر الأمريكية الإسرائيلية لابد وأن ينطلق من بغداد.

والملفت للنظر أن الكثير مما طرح في هذا التقرير من أفكار ورؤى والتي لقيت استحسانا من الليكود، هي نفس الأفكار التي طرحها بعض المحافظين الجدد في الولايات المتحدة مثل ريتشارد بيرل ودوجلاس فيث وبول وولفويتز وغيرهم من الذين سنتحدث عن دورهم فيما بعد.

فالعراق يبدو أنه في الاستراتيجية الإسرائيلية الراهنة قد قفز إلى أولويات المرحلة حيث الخيوط كلها تتجمع في يد اليهود الذين وصلوا من مرحلة الإعداد إلى مرحلة جني الثمار وممارسة الأدوار والتي على رأسها ممارسة دور سياسي بشكل أو بآخر في العراق.

*****الدور السياسي.. قناع أمريكي ووجه إسرائيلي:**

لم يكن غريبا أو مثيرا للدهشة أن تقود الإدارة الأمريكية الحكم في العراق بعد الحرب، بل هذا من طبائع الأمور فالولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا هما أصحاب الحق في الإدارة كما أنهما أصحاب قرار الحرب، لكن الذي أثار الدهشة حقا هو صدور القرار (1483) في (22مايو 2003م) من مجلس الأمن والذي يمنح الولايات المتحدة وحلفاءها سلطات غير محدودة في إدارة وحكم العراق، حيث يعد القرار غير المسبوق تكريسا للاحتلال وتدعيما لظهوره بشكل رسمي [(2)].

فالقرار لم يشترط أي حدود زمنية لتلك السيطرة الأمريكية على العراق بل أطلق يدها بشكل مباشر في التحكم واستغلال الثروة النفطية العراقية، ورسم ملامح النظام السياسي بالعراق.

وبعيدا عما أثاره قرار مجلس الأمن من تداعيات، علينا أن ننظر إلى الوضع الراهن على أنه بداية مرحلة مرسومة سلفا وبكل دقة، وهذا ليس تحليلا عربيا بل إنه

رؤية إسرائيلية صرح بها رئيس وزراء الكيان الإسرائيلي أرييل شارون الذي اعتبر أن الحرب على العراق كانت (بداية عصر- جديد) وهذا صحيح على كل المستويات- خاصة الأمريكية والإسرائيلية- فقد أصبح التفكير في مرحلة ما بعد الحرب يفوق ما كان يخطط له قبل الحرب وأثناءها، وربما يتجلى لنا ذلك بالنظر إلى ضرورة وجود نظام حكم في العراق موالي لإسرائيل بشكل مطلق.

وهنا ظهر على سطح الأحداث في البداية شخصية خرجت من رحم الفكر التوراتي والتعاطف مع إسرائيل إلى درجة الذوبان وتوكيله بمهمة إدارة شؤون العراق، إنه الجنرال الأمريكي المتقاعد جاي جارنر الذي عين حاكما مدنيا للعراق تحت مظلة الاحتلال الأمريكي، وعلى الرغم من عدم استمرارية جارنرفي مهمته التي أوكلت إلى بول بريمر إلى أنه يتحتم علينا الوقوف على خليفة جارنر الفكرية والسياسية.

وجارنر يرأس الهيئة التي أنشئت حديثا وهي مكتب الإنشاء والمساعدات الإنسانية التابع للبنتاجون، وهو في الوقت ذاته مرتبط بصناعة الأسلحة الأمريكية حيث يترأس إحدى هذه الشركات الكبرى.

وبنظرة سريعة على مرجعية جارنر ومدى ولائه لإسرائيل سنجد أنه واحد من الذين غازلوا هذا الكيان وتيمنوا به عشقا، فقد زار الكيان الإسرائيلي دعما له، وذلك في عام (1998م) وكانت الزيارة تحت رعاية المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (جينسا) وشارك أيضا في التوقيع على بيان في أكتوبر (2000م) مع ستة وعشرين قائدا عسكريا أمريكيا ونشر هذا البيان معهد جينسا.

وهو بيان يلقي اللوم على الفلسطينيين في أعمال العنف ومما ذكر في هذا البيان أن أمن إسرائيل ذو أهمية كبرى للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط بل وفي أنحاء العالم، إن إسرائيل قوية فهي أساس ودعامة أمن مهمة للولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن جارنر قد اختفى من الصورة والمشهد العراقي وحل محله بول بريمر إلا أن القضية ليست مرتبطة بشخوص بقدر ما هي مرتبطة بسياسات

واستراتيجيات وعلينا أيضا أن نلقي نظرة سريعة على خلفية الحاكم الأمريكي الحالي في العراق بريمر لنرى أنه ليس ثمة اختلاف كبير.

فقد ولد بول بريمر عام (1941م) وعمل دبلوماسيا في وزارة الخارجية الأمريكية منذ عام (1966م) حيث تنقل في أكثر من سفارة إلى أن أصبح عام (1986م) سفيرا غير مقيم مهمته تطوير وتنفيذ السياسيات الأمريكية لمكافحة ما يسمى بالإرهاب في العالم، وقد بقي بريمر لمدة ثلاث سنوات مستشارا خاصا للرئيس الأمريكي رونالد ريجان ولوزير خارجيته في شؤون مكافحة الإرهاب.

ثم تحرك بريمر أكثر وظهر على سطح الأحداث عندما اشترك عام (1966م) مع الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ومجموعة من مستشاريه المقربين لوضع خطة لاغتيال أسامة بن لادن في أفغانستان بمساعدة القوات الخاصة الأمريكية، لكن الخطة قدر لها الفشل.

ويبدو أن اسم بريمر قد ارتبط بقضية الإرهاب، فقد عين عام (1999م) رئيسا للجنة الوطنية لمكافحة الإرهاب وهذه اللجنة من صلاحيتها أن ترفع التقارير التي تعدها لرئيس الولايات المتحدة مباشرة، وأتاحت له أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن يكون رئيسا للمجلس الاستشاري لشؤون الأمن القومي وهي الهيئة التي تشكلت مباشرة بعد الهجمات.

وهذه المعطيات السابقة والخبرات العديدة في شؤون الإرهاب قد أقنعت الإدارة الأمريكية بأن بريمر هو الشخص المناسب لإدارة الحكم في العراق وذلك على الرغم من عدم خبرته أو درايته بالملف العراقي الشائك وهو ما أظهرته الأحداث التي توالت على العراق بعد الحرب سواء في التخبط الإداري أو حالة الفراغ الأمني والسياسي أو تهديد وجود القوات الأمريكية من قبل المقاومة العراقية، وقد أدى كل ذلك إلى توجيه النقد لإدارة بريمر للعراق حتى ترددت إشاعات تفيد عزله خاصة بعد تفاقم الوضع في العراق وزيادة عد القتلى من الجنود الأمريكيين.

وما يهمنا هنا التأكيد على علاقة بريمر بتيار المحافظين الجدد الذي كان وراء نشوب الحرب على العراق، وهو ما سنلقي عليه الضوء فيما بعد، فثمة علاقة وثيقة

تربط بريمر بوزير الخارجية الأسبق اليهودي هنري كسنجر حيث شغل منصب مدير إداري لشركة كيسنجر الاستشارية منذ عام (1989م وحتى عام2000م)، ولم تنته صلة برمير بالمحافظين وأسهم في وضع تقرير احتلال العراق، وفي الوقت ذاته كان بريمر عضوا في المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية وهو معهد تابع للمحافظين الجدد، وسبق أن أعد ملفاً عن أسلحة الدمار الشامل.

بقيت نقطة هامة تحدد مرجعية بريمر الفكرية والأيديولوجية وهي موقفه المعادي للإسلام كدين وللمسلمين أيضا، واللافت أنه لم يخف هذا العداء أو يتستر عليه بل إنه أعلنه مرارا في كتاباته المختلفة في الصحف الأمريكية.. فقد قال ذات مرة إن ما حدث في 11سبتمبر هو أن الإسلام المتطرف أعلن الحرب على أمريكا وقال مرة أخرى (إن هدف الإسلام هو تدمير الغرب بأسره والحضارة الغربية..).

ولا تختلف هذه النظرة كثيرا عما يحاول اليهود إلصاقه بالإسلام وبالثقافة الإسلامية، فقد أصدر بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق كتابا عام (1996م) بعنوان (محاربة الإرهاب) وأكد فيه على أن الإرهاب متأصل في الثقافة الإسلامية!!

هذه هي ملامح شخصية بريمر الوظيفية كدبلوماسي في الخارجية وكواحد من المنظرين لفكرة ما يسمى بمكافحة الإرهاب وربط الإسلام بالإرهاب تماما مثلما تذهب وجهة النظر اليهودية، وبريمر أيضا واحد من الذين تربطهم علاقات بالمحافظين الجدد ولهذا يمكن أن نعتبره ضمنيا داخل هذا التيار الذي كان وراء اندلاع الحرب في العراق ووراء ما يحدث فيها بعد الحرب، ومن المعروف أن هذا التيار ومن ينتمون إليه من اليهود أو من اليمين المسيحي مؤيد وموالٍ لإسرائيل بشكل مطلق لاعتبارات كثيرة سنفصلها فيما بعد.

ولهذا ليس مستغربا أن تكرس فترة حكم بريمر على قوة الدور السياسي اليهودي في العراق، وهو ما حدث فعليا عندما طالب بعض اليهود العراقيين بالمشاركة في المجلس الاستشاري الذي تعتزم سلطة الاحتلال تشكيله من ممثلي القوى والأحزاب

العراقية الرئيسة.. بل إن هناك مصادر أشارت إلى أن من المكلفين بوضع دستور للعراق هو رجل قانون يهودي من أصل عراقي!!

وعلينا أن نحاول إجمال بعض المكاسب السياسية التي حصلت عليها إسرائيل من تأزم الوضع في العراق فيما قبل الحرب وبعدها:

1- من القضاء على قوة عربية كبرى (عسكرية واستراتيجية..) قد تهدد أمن إسرائيل وتضمن لها التفرغ لمساحات أخرى بعد تفريغ الوجود العسكري للعراق وتحييده، وتمثل ذلك في طرح الملف السوري عقب الحرب وملف المقاومة الفلسطينية ومحاولة تصفية كل ما يعادي المشروع الصهيوني في فلسطين أو في غيرها.

2- اعتبار ما حدث في العراق مرحلة تتلوها خطوات أخرى الهدف منها تحجيم القوى العربية والإسلامية حتى ما كان منها صديقا للولايات المتحدة، يقول مايكل ليدين وهو صهيوني متعصب ينتمي إلى معهد (المشروع الأمريكي A.I.I) : (إن العراق معركة وليس حربا فطهران بعد بغداد ومن بعدها دمشق والرياض) وقد ذكر هذه العبارة أثناء الحرب!!

3- المزيد من التنازلات العربية فيما يخص الصراع مع الكيان الإسرائيلي (التطبيع وإعادة العلاقات) وهو ما تردد صداه داخل العراق عندما أكد أمين محمد أمين وهو المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية العراقية أنه ليس من المستبعد أن يقيم العراق علاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

4- استمرار الهيمنة الإسرائيلية وقيامها ربما بدور شرطي المنطقة، وبذلك من خلال إعادة طرح مشروع الشرق أوسطية من جديد.

5- ظهور حاكم أمريكي مثل جارنر أو بريمر أو حتى حاكم عربي موالي لإسرائيل سيحدث بلا شك تغيرات في التشكيلة السياسية في الشرق الأوسط وتحديدا في فلسطين.. وهذا الربط بين حاكم العراق الجديد- عراقيا أم أمريكيا- وبين الملف الفلسطيني طرحه الكثيرون ومنهم دوجلاس فيث وكيل وزارة الدفاع الأمريكي عندما قال: (إن إقامة ديموقراطية في العراق ربما يساعد على تولي زعماء فلسطينيين قد ترغب إسرائيل في الحديث معهم) ولم تقتصر هذه التصريحات المباشرة على دوجلاس

فيث بل إن هذه النقطة طرحت مع وزير الخارجية الأمريكي وذلك في مقابلة مع شبكة تليفزيون (سي إن إن) أذيعت بتاريخ (2003/7/24م) حيث صرح الأول أن مقتل نجلي صدام حسين في العراق يجب أن يشجع الزعماء العراقيين والعرب الآخرين على التفاوض من أجل السلام مع إسرائيل وقال أعتقد أنها تحفز الزعماء المعتدلين في المنطقة على التفاوض مع إسرائيل والمضي قدما نحو السلام مع إسرائيل وقد كانوا طيلة أعوام كثيرة يخشون أن يفعلوا ذلك لأن صدام حسن كان في الحكم وقد وافقه على ذلك وزير الخارجية الأمريكي كولن باول الذي قال إنه (يتوقع أن تتفق حكومة منتخبة ديمقراطيا في العراق على السلام مع إسرائيل) وعاد فأكد من أنه على يقين أنهم- أي الزعماء العرب- يمضون قدما وأنهم سيجدون أن مصلحتهم أن يتفقوا على السلام مع إسرائيل وكذلك جيرانها الآخرين وهذا ما أتوقعه ولا يمكننا أن نفهم مثل هذه التصريحات إلا بوجه واحد أو دلالة واحدة وهي التهديد المبطن لكل من يحاول الخروج عن هذا السيناريو وكأن التصريحات تقول إن مصير نجلي صدام حسين (عدي وقصي) اللذان لقيا حتفهما يوم الثلاثاء (2003/7/22م) سيكون مصير من يقف أمام إسرائيل أو أمام فكرة إقامة علاقة معها أو أمام المخططات الجديدة للمنطقة.

6- تحييد أوروبا وتخفيف دورها بل إلغاؤه واقتصار الأمر في معالجة قضايا المنطقة على الولايات المتحدة وهذا ما ظهر جليا أثناء الحرب وبعدها وخاصة في ظهور قرار مجلس الأمن رقم (1483).

تلك كانت بعض ملامح الدور السياسي لإسرائيل في الحرب على العراق والمكاسب التي ترتبت عليه، لكن هناك أدواراً أخرى ومكاسب عدة ظهرت بموازاة هذا الدور السياسي ومنها وجود دور عسكري واستخباراتي في تلك الحرب وهو مرتبط بما سبقه ومعزز له.

***إسرائيل ودورها العسكري والاستخباري في العراق:

وقد برز هذا الدور قبل اندلاع الحرب بفترة كبيرة، من خلال تعاون عسكري واستخباراتي أمريكي إسرائيلي، فقد كانت إسرائيل من أوائل الدول التي أبلغتها أمريكا بموعد بدء الحرب، وقبل أيام من بداية الحرب وصل إلى تل أبيب الجنرال تشالرز سمبسون وهو قيادي أمريكي تولى مهمة الاتصال والتنسيق بين القيادة العسكرية الأمريكية ورئاسة الأركان في الجيش الإسرائيلي.

وفي مرحلة الإعداد للحرب كان هناك تواجد إسرائيلي واضح ظهر في أكثر من مشهد، فقد استعانت مشاة البحرية الأمريكية في كارولينا الشمالية خلال شهر سبتمبر (2003م) قبل اندلاع الحرب بالدكتور مارتن فان كريفلد أستاذ التاريخ والاستراتيجية العسكرية في الجامعة العبرية بالقدس ليقدم النصح لهذه القوات من خلال محاضرات واجتماعات معهم بل وإطلاعهم على التجارب الإسرائيلية في مقاومة الفلسطينيين والقضاء عليهم كما حدث في جنين.

وهناك أكثر من مصدر يؤكد أن القوات الإسرائيلية قامت بتدريب الجنود الأمريكيين على تكتيك حرب المدن التي خاضتها القوات الأمريكية أثناء غزوها واحتلالها للعراق.

واستمرت الشراكة أثناء نشوب الحرب من خلال تفاهمات عسكرية بين الكيان وأمريكا بل إن الأسلحة والتكنولوجيا الإسرائيلية قد شاركت فعليا في الحرب التي دارت هناك، صحيح أنها لم تكن تشارك مباشرة من خلال قوات وذلك حتى لا تثير هذه المشاركة الرأي العام العربي، وحتى بعد انتهاء النظام العراقي وفي ظل الفراغ الأمني والسياسي الراهن ثمة تواجد إسرائيلي هناك.

وهذا ما طرحه الكاتب الإسرائيلي زئيف شيف في صحيفة (هارتس) بتاريخ (2003/3/27م) حيث أكد بشكل غير مباشر على دور إسرائيل في تحريض أمريكا في حربها على العراق لكنه حذر من ظهور هذه السياسة التحريضية في ملفات أخرى تخص مرحلة ما بعد الحرب على العراق يقول (والقاعدة الأساسية التي على إسرائيل التشديد عليها هي عدم البحث عن أعداء جدد لواشنطن، على إسرائيل ألا تظهر كمن

تعرض على الأمريكيين أهـدافا للضرب بعـد الحـرب في العـراق وإذا فعلـت ذلك فستتهم بأنها تحرض على الحرب..).

والملاحظ أن المجتمع الإسرائيلي كان يتعامل مع هـذه الحـرب عـلى أنـه هـو الذي يخوضها فعليا ولهذا كتبت صحيفة (يـديعوت أحرنـوت) الإسرائيليـة في بدايـة الحرب وعلى صـدر صـفحتها الأولى: (إن قلـوب الإسرائيليـين وصـلواتهم مـع القـوات المسلحة الأمريكية).

ولهذا كان حرص القيادة العسـكرية الأمريكيـة والبريطانيـة في أثنـاء الحـرب على تأمين إسرائيل وعدم تكرار ما حدث في حرب الخليج الثانية عام (1991م) عندما كانت العراق تضرب تل أبيب. لما لا والحـرب إسرائيليـة بجيـوش أمريكيـة بريطانيـة، قامت في العلن بما كان ينبغي أن تقوم به إسرائيل في السر، واختصرت الطريـق أمـام الكيـان لـكي يخـترق وبكـل سـهولة السـاحة العراقيـة المفتوحـة عـلى مصراعيها الآن للموساد ورجال المخابرات الإسرائيلية.

وهنا يأتي الدور الإسرائيلي الاستخباراتي حيث أشارت العديد من الأنباء إلى أن جهاز الموساد قد بدأ فعليا في التسلسل إلى العراق تحت مظلة أمريكية ويقـوم بفـتح عدة مكاتب له في العاصمة بغداد، وهذا ما أشارت إليه جريدة العدالة العراقية التي تصـدر مـن المجلـس الأعـلى للثـورة الإسـلامية حيـث أكـدت في عـددها بتـاريخ (2003/6/19م) أن الموساد يعمل على شراء أو إيجار فنـدق يكـون قريبـا مـن فنـدق بغداد الذي استأجرته وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية..

وقد حددت الجريدة اسم الفندق وهو (زهرة الخليج) الـذي يقـع في قلـب العاصمة ويبدو- كما أشارت الجريـدة- أن أصـحاب الفنـدق رفضـوا العـرض المغـري، ولهذا لوحظ أن عددا من اليهود ذوي الأصل العراقي قاموا بشراء أراضي وعقـارات في بغداد بأكثر من قيمتها الحقيقية خاصة في ظل تدني الأسعار وفي ظـل الظـروف التـي واجهتها العراق بعد الحرب.

وقد روى أحد ضباط القوات الجوية العراقية برتبـة مقـدم تفاصـيل اعتقالـه وبعض أسرته في مايو (2003م)، والملفت فيما رواه هو تأكيده على أن الذين

استجوبوه كانوا إسرائيليين، ولسنا هنا نشكك في هذه الرواية أو في غيرها ولكن التماهي والاختلاط الواضح بين الإسرائيليين والقوات الأمريكية أصبح أمرا منطقيا بحيث لا نستغرب أن يكون هناك محققين إسرائيليين يستجوبون المعتقلين العراقيين.

لكن الذي لاحظناه هو تواتر الأنباء والأخبار حول نشاط الموساد في العراق وهذا ما أكدته مصادر استخباراتية تركية تؤكد هذا النشاط الواسع والمتنوع للموساد، حيث أقام مكاتب سرية في عديد من المدن العراقية ومنها (بغداد والموصل والسليمانية وأربيل..) ويبدو أن الاختيار الجغرافي لهذه المكاتب يتناسب مع جوار هذه المدن لسوريا وإيران وتركيا.

فقد أصبح ملحوظا وملفتا للأنظار أن أعدادا من الإسرائيليين وعملاء الموساد والحاخامات والخبراء بشؤون العراق قاموا بزيارات سرية بهدف إعداد دراسات أمنية ودينية واستراتيجية تخص العراق والمنطقة.. ويبدو أن أصداء هذه التحركات قد لفتت أنظار الجامعة العربية، وذلك من خلال عدة تقارير رفعت إلى عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية تؤكد ما سبق وطرحناه وتضيف أن الإسرائيليين يستخدمون جوازات سفر غير إسرائيلية لكي يكون لديهم حرية في التنقل دون لفت الأنظار.

وأشارت هذه التقارير التي رفعت للجامعة العربية أن هناك تنسيق يجري مع الإدارة الأمريكية في العراق برئاسة بول بريمر بهدف استصدار تشريع يسمح للإسرائيليين اليهود من أصل عراقي باستعادة الجنسية العراقية وذلك لتسهيل مهمتهم في شراء وتملك الأراضي والعقارات. وأكدت هذا الطرح نشرة فرنسية صدرت بتاريخ (3يوليو 2003م)حيث قالت أن هناك استراتيجية تقوم بتنفيذها إسرائيل في العراق منذ سقوط نظام صدام حسين وأن جهاز الموساد هو المعني بتطبيق هذه الاستراتيجية حيث تكونت لجنة أو شعبة خاصة بالعراق من جنرالات سابقين في الجيش الإسرائيلي يتولون إدارة هذه الشعبة.

ومن هؤلاء ثلاثة يهود ينتمون لأصول عراقية وهم إسحق موردخاي وموشي ليفي اللذان رأسا هيئة الأركان الإسرائيلية، وكذلك بنيامين بن اليعازر وزير الدفاع والرئيس السابق لحزب العمل.

وينطلق عمل هذه الشعبة من عدة محاور الهدف منها اختراق النسيج العراقي والتحكم في مساراته ومن هذه المحاور:

1- إيجاد علاقات قوية مع الحركات والتيارات السياسية في العراق ومنها المؤتمر الوطني العراقي الذي يتزعمه أحمد الجلبي وفي إشارة إلى قوة هذه العلاقات فقد شارك الجلبي في اجتماع منظمة إيباك الصهيونية والتي تمتلك نفوذا سياسيا واقتصاديا قويا في الولايات المتحدة، وكذلك العلاقات التي ظهرت بين الحزب الديمقراطي الكردستاني والذي كان يتزعمه مصطفى البرزاني مع الكيان.

2- إقامة علاقات مع النخبة والمثقفين العراقيين خاصة الذين تنكروا للعروبة وبرروا للاحتلال الأمريكي، بل ومحاولة استقطاب عدد منهم للتدريب في الكيان الإسرائيلي.

3- اختراق المشهد العراقي بواجهة عمل عربية وغربية حتى لا يستثار الشارع العراقي ويعوق تنفيذ مخططات الموساد أي من خلال حكومات عربية أو شركات عالمية.

4- حصر ممتلكات اليهود العراقيين المزعومة والذين تقدر أعدادهم- حسب الإسرائيليين- بحوالي مائة وأربعة وعشرون ألفا من يهود العراق الذي تركوا البلاد بعد نكبة (1948م) وتعويضهم عما فقدوه، ولهذا فقد زار وفد من الوكالة اليهودية الدولية العراق لمحاولة حصر هذه الممتلكات.

5- التنسيق الدائم مع بول بريمر الحاكم الأمريكي في العراق بحيث يسهل الكثير من مهام هذه الشعبة وهو ما يحدث فعليا إذ تقدم الدعم المباشر وغير المباشر لتحقيق هذه الأهداف.

تلك وغيرها أهم أهداف جهاز الموساد التي يسعى لتحقيقها في العراق منها ما تم فعلا على أرض الواقع ومنها ما سنشاهده في الأيام القبلة ويتم التدبير له سرا، على أن كل ذلك أمر منطقي، فاختراق الموساد أو غير الموساد ليس مستغربا في ظل وجود فراغ سياسي وأمني داخل العراق في فترة ما بعد الحرب وبداية الاحتلال الأمريكي الفعلي لها.

وليس دور الاستخبارات الإسرائيلية ومحاولتها التسلل إلى الدول العربية بجديد فقد نشط جهاز الموساد في تحقيق ذلك قبل وبعد قيام الكيان الإسرائيلي في جمع المعلومات والبيانات في حالات الحرب والسلم على السواء واستثمار هذه المعلومات في إحداث التفوق النوعي على العرب[3] فتلك طبيعة الدور اليهودي الذي سيأتي بلا شك بنتائج مثمرة ومكاسب وفيرة على الصعيد العسكري أو السياسي أو الاقتصادي في الساحة العراقية التي تتميز بثرائها وغناها النفطي وغير النفطي وهو ما يدفعنا لرصد المكاسب الاقتصادية التي حققتها أو تسعى لتحقيقها إسرائيل بعد الحرب على العراق.

***الدور الاقتصادي الإسرائيلي وقطف الثمار:

وسدة المكاسب والثمار هي المكاسب الاقتصادية التي تتبدى كما هو حاصل الآن في الحصول على ثروات العراق النفطية وغير النفطية وفتح أسواق جديدة لإسرائيل في العراق في ظل الحكومة الجديدة وربما لطرح فكرة أسواق الشرق أوسطية بقوة. وفي الحقيقة فإن الذهنية اليهودية دائما ما تركز في كل مراحلها التاريخية على مبدأ المنفعة والاستفادة بكل الطرق من المتغيرات وهذا ما حدث في الشأن العراقي بالتحديد، حيث استثمرت إسرائيل هذه المتغيرات لتحقيق منافع اقتصادية تنعش مواردها وتحرك اقتصادها، وقد حدث ذلك بموازاة الأدوار الأخرى التي تكلمنا عنها السياسية والعسكرية والاستخبارية.

فالذهنية اليهودية تؤمن بأن الاستفادة يجب أن تكون محاطة بعوامل القوة العسكرية والمعلوماتية، فوجود القوات الأمريكية ووجود الموساد والعناصر الموالية لإسرائيل داخل العمق العراقي سيضمن لها سرعة تدفق الأموال بل واحتكار السوق والتحكم فيه. وذلك ما حدث وأظهرته الوقائع بعد انتهاء الحرب، في أكثر من محور اقتصادي منها استغلال النفط العراقي وقضية إعمار العراق ووجود تجارة بينية وأخيرا المساعدات التي حصلت عليها إسرائيل من الولايات المتحدة أثناء الحرب .. وسوف نستعرض بالتفصيل هذه المحاور:

1- فقضية النفط العراقي المستباح كان حافزا لإسرائيل على الدخول بقوة في إطار المنافسة على استغلاله، وهذا ما كشفته مصادر عبرية أكدت على أن إحدى الشركات الإسرائيلية وتدعى شركة بزان ستقوم بشراء (10%) من إجمالي الواردات النفطية الإسرائيلية من العراق، وصرح بذلك يشار مودخاي مدير الشركة نفسها، وأكد على أن الشركة ستقوم بشراء النفط الخام من العراق عن طريق تركيا.. ولم يقتصر الأمر عند مستوى مدير هذه الشركة وتصريحاته بل إن (بنيامين نتنياهو) وزير المالية الإسرائيلي قد أبلغ جمعا من المستثمرين البريطانيين في لندن بتاريخ (2003/6/20م) أنه لن يطول الأمد قبل أن يتدفق النفط العراقي إلى حيفا وعلى الرغم من أنه لم يحدد موعدا لذلك إلا أنه أكد على أن الكيان الإسرائيلي يقوم بدراسة المراحل الأولية لإعادة تشغيل الأنبوب الذي يخترق الأراضي الأردنية وهو خط (كركوك- حيفا) الذي أغلق منذ عام (1948م)، وسبق ما قاله نتنياهو تصريحات أخرى من وزارة البنية الأساسية في إبريل (2003م) بان الكيان سيجري محادثات مع الأردن في شأن إعادة فتح هذا الخط وركزت التصريحات على أهمية الخط لإسرائيل إذ انه سيقوم بخفض سعر الوقود في الكيان بنسبة (25%)، وقد نفت الأردن على لسان وزير الطاقة والثروة المعدنية محمد البطاينة بتاريخ (2003/6/23م) ما تردد بهذا الخصوص وما ذكره نتنياهو عن خط (كركوك- حيفا) وأيا كان الأمر فهذه رؤية إسرائيلية قابلة للتحقيق من خلال سعي الكيان الدؤوب لاستغلال نفط العراق، والطريف أن هذه الرؤية مطروحة منذ سنوات بعيدة قبل حدوث هذه الأزمة أو تلك الحرب، فقد نشرت جريدة (جيروزاليم بوست) العبرية بتاريخ (1977/10/26م) مقالا لبعض قيادات الجيش الإسرائيلي ومنهم الجنرال (ماير أميت) رئيس المخابرات الإسرائيلية الأسبق ذكر فيه أن إسرائيل تفكر في عملية عسكرية ضد آبار البترول العربية وبأن الآبار هي إحدى أهداف الحرب لأنها استخدمت كسلاح من قبل العرب، صحيح أن المقال لم يشر تحديدا للعراق ونفطها ولكن المؤكد أن النفط أو البترول كان واحدا من الأهداف الاستراتيجية الإسرائيلية في المنطقة.

2- أما بخصوص ما أطلق عليه إعمار العراق فهي عملية ليس الهدف منها سوى إضفاء الشرعية على نهب خيرات هذا البلد واستثمار ثرواته والتحكم في مصيره السياسي والاقتصادي، وقد برزت المطالبة بمشاركة إسرائيل في هذه العملية داخل الكيان وداخل الولايات المتحدة على السواء، ففي مقابلة أجرتها صحيفة (يديعوت أحرنوت) الإسرائيلية بتاريخ (2003/6/22م) مع جون تيلور نائب وزير الخارجية الأمريكي أكد على ضرورة مشاركة إسرائيل في إعمار العراق وقال: (إن الطريق مفتوح أمامها وعليها أن تعرف كيف تستغل الفرصة الكبيرة المتاحة أمامها..) وهذا صحيح فالطريق قد أعد من خلال المراحل السابقة، لكن إسرائيل لا تحتاج إلى النصح في كيفية استغلال الفرص، لأنها مهيأة ومستعدة، ثم يقول تيلور مؤكدا ما ذكره من أن (عملية التشريع في المجالات الاقتصادية التي سيشهدها العراق ستتيح الفرصة أمام شركات إسرائيلية للبدء في تنفيذ مشاريع في العراق والاستثمار فيه..) والهدف من كل ذلك هو دعم الاقتصاد الإسرائيلي وليس إعمار العراق يقول تيلور: إن مشاركة إسرائيل في إعمار العراق ستدفع بالاقتصاد الإسرائيلي إلى الأمام والذي يلفت النظر أن هذه التأكيدات جاءت من الطرف الأمريكي المسيطر على الأوضاع في العراق فهي ليست أمنيات إسرائيلية أو آمال صعبة التحقيق ولذلك يجب أن تؤخذ هذه العبارات بمحمل الجد لأنها تعبر عن نهج السياسة الأمريكية الموالية لإسرائيل ويمثلها جون تيلور وهو المسؤول عن السياسة الاقتصادية في إدارة بوش الابن بما فيها السياسة الاقتصادية الأمريكية في العراق المحتل، وهو يشغل في نفس الوقت أمين عام اللجنة الأمريكية المكلفة بالإشراف على الاقتصاد الإسرائيلي.. لكن الطرف الإسرائيلي لم ينتظر تأكيدات حليفه الأمريكي لكي يبدأ خطواته التطبيقية، فقد أشارت صحيفة (يديعوت أحرنوت) في عددها بتاريخ (2003/6/4م) أي قبل أن تجري حوارها مع تيلور- إلى أن عشر شركات إسرائيلية مختصة في مجالات مختلفة وتحت غطاء ودعم ووساطة جهات غربية قد بدأت فعليا في دراسة إمكانية مشاركة هذه الشركات في عملية إعمار العراق، وذلك عن طريق شركتين إسرائيليتين هما مجموعة أمنت وشركة

وايتربـول وتعمـل هـذه الشركات العشرـ في مجـال الخدمـة الطبيـة والأدويـة وإدارة المشاريع والتخطيط والهندسة والبنى التحتية إضافة إلى مواد استهلاكية أساسية.
3- وبخصوص التجارة البينية التي تقوم بها إسرائيل منـذ فـترة مـا بعـد الحـرب فقـد كانت في البداية مقترحات قدمتها إلى الإدارة الأمريكية في شهر مايو (2003م) وتقضي بتزويد الجنود الأمريكيين في العراق بالخضار والفاكهة عبر الأردن، وكـان اقـتراح هـذه الاتفاقية قد تسلمه وزير الخارجية الأمريكي كولن باول من وزيـر الزراعـة الإسرائـيلي يسرائيل كاتس أثناء زيارة بـاول للكيـان، وهـذا مـا تـم تنفيـذه حيـث قامـت قيـادة الجيش الأمـريكي بمـنح إسرائيـل حـق تزويـد القـوات الأمريكيـة في العـراق بالفواكـه والخضراوات وغيرها من الأغذية في إطار صفقة تجارية تقـدر قيمتهـا بمئـات الملايـين من الدولارات ويتم نقل هذه البضائع والمنتجات عن طريق الأردن ثم تقوم شاحنات بنقلها إلى العراق، ويسري الأمر أيضا على القـوات البريطانيـة وإذا لم تكـف المنتجـات الإسرائيلية في سد هذه الاحتياجات فإنها ستستوردها من تركيـا أو مـن بعـض الـدول العربية، وحتى فيما يخص الشركات الأجنبيـة- وخاصـة الأمريكيـة والبولنديـة- التـي ستسهم في إعادة إعمار العراق ستقوم إسرائيل بمهمة تغطية احتياجاتهـا، وقـد أشـيع أيضا أن هناك شركات سياحية إسرائيلية بالاتفاق مع نظيراتها الأردنية ستقوم بتنظـيم رحلات لإسرائيليين للعراق، ولكن مصـادر أردنيـة نفـت ذلـك حسـبما ورد في جريـدة (الدستور) الأردنية بتاريخ (2003/6/24) وربما الذي كرس هذه الأنبـاء مـا تـردد مـن هناك محاولات لإعادة الطريق الجوي الذي يربط تل أبيب وبغداد.. وقد طرح معهد التصدير الإسرائيلي رؤية وسيناريو في (2003/7/23م) لما يمكن أن تقـوم بـه الشركات الإسرائيلية في الفترة المقبلة حيـث أكـد أنـه عـلى الأرجـح لـن تحظـى بفرصـة دخـول السوق العراقي بشكل مباشر في البداية لكن الصادرات السنوية قد تصل بشكل غـير مباشر إلى مائة مليون دولار في أول ثلاث سنوات وقد تعمل الشركات الإسرائيليـة مـن الباطن أو من خلال عقـود شراكـة مـع شركـات أمريكيـة وبريطانيـة وتركيـة وأردنيـة وتشيكية وبولندية وأسترالية.. وذكر المعهد أن بإمكان الشركات الإسرائيليـة الحصـول عـلى أعـمال في مشرـوعات البنيـة الأساسـية، وسـوف يقـوم المركـز لتحقيـق هـذه الاستراتيجية

بعقد مؤتمرات تدور حول هذا الموضوع يحضرها رجال أعمال عراقيون يعيشون في أوروبا، واعتبر المعهد أن أولى الخطوات نحو تحقيق هذه الاستراتيجية الاقتصادية هو ما قام به بنيامين نتنياهو وزير المالية الإسرائيلي في (2003/7/21م) عندما رفع اسم العراق من قائمة الدول المعادية.

4- المساعدات الأمريكية للكيان الإسرائيلي والتي زاد حجمها بمقدار ستمائة وخمسون مليون دولار أخرى فوق ما كان مقررا لها سنويا، حيث أن حجم المساعدات العسكرية والاقتصادية التي ترسلها الولايات المتحدة لإسرائيل يقدر بحوالي ثلاثة مليارات دولار سنويا، والملفت أن هناك زيادة دائمة في حجم المساعدات خاصة في أثناء الأحداث الكبرى التي تعصف بالمنطقة والتي تعرض أمن إسرائيل للخطر، ففي أعقاب حرب (1967م) قفزت هذه المعونات إلى نسبة (450%) وفي عام (1970م- 1971م) زاد العون الأمريكي سبعة أضعاف وبعد حرب (1973م) زاد إلى (800%).. وفي بداية الحرب الأخيرة على العراق قام مجلس الشيوخ الأمريكي بمنح الكيان الإسرائيلي عشرة مليارات دولار.. وهكذا كلما تعرضت إسرائيل للخطر تزداد حجم تلك المساعدات التي تمثل بلا شك موردا اقتصاديا هاما بالنسبة للكيان.

هذه هي بعض المكاسب التي خرجت بها إسرائيل من مجمل الأزمة العراقية الأخيرة ولم تكن هذه المكاسب تتحقق لولا وجود القوة الأمريكية وراءها وأمامها ولولا وجود لوبي صهيوني متحكم في مسار السياسة الأمريكية ووجود تيار موالي لإسرائيل في كل مواقفها وهو ما أطلق عليه بالمحافظين الجدد، وهذا سيدفعنا للدخول في تفاصيل العلاقة التي ربطت الكيان الإسرائيلي باليمين الأمريكي.



الفصل الثاني
إسرائيل
والولايات المتحدة ..
من يخدم من ؟ !

*****إسرائيل والولايات المتحدة.. من يخدم من؟!**

منذ أن حط أسطول (كولومبس) على شواطئها عام (1492م) واستقرت جموع المهاجرين الأوروبيين في سواحل أمريكا وتكونت المستوطنات وأبيدت جماعات الهنود الحمر.. ثم حصلت على استقلالها في (4يوليو 1776م) وانفصلت عن الوطن الأم، وقد شهدت هذه الدولة/ القارة تغيرات طرأت عليها حولتها في خلال عقود مضت إلى أقوى دولة في العالم تحكم وتتحكم في المصائر وترسم للبشرية خيوط المستقبل!!

ولم تكن الذهنية اليهودية قد التفتت بعد إلى أهمية العالم الجديد فقد تركز اهتمامهم على أوروبا حيث الإمبراطوريات القوية التي تحكم العالم خاصة بريطانيا وفرنسا ولهذا لم تشهد الولايات المتحدة وجودا يذكر لليهود عند إعلان استقلالها فلم يزد عددهم عن ثلاثة آلاف وزادت إلى أربعة آلاف عام (1820م).

وقد جاء اليهود كغيرهم من المهاجرين إلى ذلك العالم المفتوح منذ القرن التاسع عشر وبدأت أعدادهم تتزايد بشكل ملفت نتيجة هجرات متتابعة أوصلتهم في عام (1924م) إلى أكثر من أربعة ملايين يهودي استقروا واندمجوا في هذا المجتمع، لكنهم لم يصلوا إلى الذوبان فقد حافظوا على هويتهم ومعتقداتهم ورؤاهم الخاصة.. وأصبح لهم بمرور الوقت نفوذا وسلطات وصلاحيات تعاظمت وشكلت قوة للضغط [4].

ولسنا هنا معنيين بتعقب تاريخ وجود اليهود في أمريكا لكن الذي نحاول أن نرصده هو علاقتهم بصناع القرار الأمريكي (رؤساء ومؤسسات الحكم..) وتأثير ذلك على مجريات الأمور في المنطقة العربية وصولا إلى حرب العراق الأخيرة، فقد كان الولاء لليهود وللحركة الصهيونية واضحا أخذ شكل التعاطف والمساندة، لكنه تحول بعد قيام الكيان الإسرائيلي إلى تأييد مطلق وأصبح الولاء لإسرائيل مظهرا من مظاهر السياسة بل كل نواحي الحياة الأمريكية.

في عام (1979م) صرح ألكسندر شيندلر أحد الحاخامات اليهود الأمريكيين قائلا: (إن يهود أمريكا قلقون بشكل عميق لأمن إسرائيل.. إننا نعتبر أنفسنا شعبا واحدا

وأن واجبنا حماية اليهود أينما وجدوا، والمسألة ليست مجموعة من الزعماء اليهود تقود الجماهير وإنما جماهير الشعب اليهودي هي التي تدفع بالقادة إلى الأمام).

وربما تختزل هذه العبارة تلك العلاقة أو الشراكة بين الولايات المتحدة في فترات مختلفة للتدليل على عمق ومتانة العلاقة التي تربط الكيان الإسرائيلي بأمريكا، ورصدنا محورا هاما ربما يشترك فيه أكثر من رئيس أمريكي وهو الولاء لإسرائيل حسب المعتقدات الدينية.

فظاهرة إعجاب الكثير من رؤساء الولايات المتحدة بالكيان الإسرائيلي أقدم من بوش الابن والأب على السواء، وهو إعجاب حقيقي عند هؤلاء وإيمان بقيم معينة وليس مجرد مناورة أو صفقة مصالح، فالرئيس وودرو ولسون (1856-1919م) في مطلع القرن العشرين كان يصف إسرائيل بأنها نور الأمم وهو من الذين أيدوا وعد بلفور عند صدوره عام (1917م)، وانسحب هذا الإعجاب على معظم رؤساء الولايات المتحدة إن لم يكن كلهم.

والملفت أن الأمر قد تخطى مسألة الإعجاب إلى الموالاة والتبعية المطلقة لإسرائيل مهما كانت النتائج، فقد تعرض الرئيس هاري ترومان (1884-1972م) لتحذيرات مستشاريه من انعكاسات قرار الاعتراف بإسرائيل عام (1948م) وتأثير ذلك على العلاقات مع الدول العربية فأجاب قائلا: (كم صوتا يملك العرب في الانتخابات الأمريكية) وكان نص ما قاله: (إنني يتعين علي أن أجيب على مئات الألوف المهتمين بنجاح قضية الصهيونية ولا يوجد مئات الألوف من العرب الذين سيدلون بأصواتهم في لجان الانتخابات).

وترومان لم يقصد بذلك فقط تأثير اليهود على الانتخابات وإنما على كل قطاعات المجتمع الأمريكي وعلى رأسها الانتخابات التي تجلب من يحكم وتصل به إلى البيت الأبيض، فحتى عام (1974م) موّل اليهود نسبة (60%) من نفقات حملة مرشحي الحزب الديمقراطي، وحوالي(40%) من نفقات الحزب الجمهوري في الحملات الانتخابية.

إن ترومان فهم بذلك كما فهم غيره خيوط اللعبة التي تتحرك في الظاهر أحيانا ومن وراء ستار أحيانا أخرى، لكن الولاء لم يكن انتخابيا فقط بل إن الانتخابات تمثل الجزء الظاهر من جبل الجليد في حين يمثل الانتماء للعقيدة بقيته المستترة في عمق الأرض.

***رؤساء أمريكا.. الدمى وخيوط اللعبة:

وربما يشعرنا العنوان أن الرؤساء الأمريكيين كانوا يتحركون دون وعي لخدمة إسرائيل، فذلك فهم مغالط للحقائق لأن هؤلاء الذين اشتهر عنهم الولاء لإسرائيل كانوا يتحركون بوازع عقائدي قيمي في أكثر الأحيان حتى عندما كان البعض منهم يمارس ضغوطا بشكل أو بآخر على إسرائيل كان ذلك نوع من التكتيك أو المراوغة السياسية التي قد توهم البعض- خاصة العرب- باتزان الموقف الأمريكي.

وعلينا هنا أن نرصد هذا الجانب العقائدي في علاقة الكثير من الرؤساء الأمريكيين بالكيان الإسرائيلي لأنه سيلقي الضوء على مبررات الحرب الأخيرة على العراق، وليس ذلك تقليلا من أهمية الأبعاد أو الدوافع الأخرى للحرب سواء عسكرية أم سياسية أم اقتصادية.

لكننا نؤمن أن المواقف التي تتحرك بدون أفكار ومرجعية هي مواقف صماء مسلوبة القدرة على الفعل والتأثير، ومن الغريب أن مواقف الدول الاستعمارية في السابق والولايات المتحدة في الوقت الراهن وتأييدها لإسرائيل تستند إلى مثل هذه المرجعية وذلك واضح لا لبس فيه وعلى الرغم من ذلك نجد القراءة العربية والإسلامية للتاريخ تقصي هذا الجانب وربما لا تعترف به.. ولعل التوراة أو العهد القديم[5] كان- وما يزال- يشكل مساحة كبيرة من هذه المرجعية الغربية في التعاطي مع الشأن العربي والإسلامي وخاصة الصراع مع الكيان الإسرائيلي، ولسنا في ذلك نغالي أو نبالغ فالوقائع تشهد بأن مفاهيم التوراة ومفرداتها وأساطيرها صبغت السياسة الغربية عقودا طويلة.

فالتاريخ التوراتي يشكل حسب هذه الرؤية التاريخ الأهم والأولى بالعناية ومن خلاله أصبح ينظر إلى تاريخ العالم كله بل وحاضره الراهن ومستقبله القادم.. ولم يتبن هذه الرؤية اليهود وحسب بل إنها ظهرت لدى قطاع كبير من المفكرين والسياسيين غير اليهود في الغرب خاصة بعد ظهور الإصلاح البروتستانتي في أوروبا على يد مارتن لوثر (1483-1546م) وتحولت هذه الرؤية إلى تيار فكري جارف تلبسه هؤلاء وانطلقوا منه عندما استقوا أفكارهم من العهد القديم وجعلوها مرجعية يستندون إليها. فظهر في أوروبا عدد من الفلاسفة والعلماء الذين لا يشك في مدى إسهاماتهم العلمية والفلسفية ومنهم الفيلسوف جون لوك (1631-1704م) والعالم الشهير اسحق نيوتن (1642- 1727م) وخاصة في كتابه (ملاحظات حول نبوءات دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتي) وكذلك العالم الكيميائي والقس البرتستانتي جوزف برستل (1733- 1804م) وغير هؤلاء من بعض المفكرين الأوروبيين الذين تناسوا منهجيتهم العلمية الدقيقة وتقبلوا أساطير العهد القديم وأقبلوا على نصوص التوراة يجترونها بعاطفة قوية.

وانسحب ذلك الحماس التوراتي على قطاع كبير من الساسة الأوروبيين بل وأسهموا في ترسيخها- خاصة في بريطانيا- فقد مارس عدد من قادتها السياسة بمسحة توراتية واضحة ومنهم اللورد شافتسبري (1801- 1885م) وعدد من وزراء خارجيتها مثل اللورد بالمرستون (1784- 1865م) ولورنس أوليفانت (1892- 1888م) وكذلك اللورد آرثر جيمس بلفور (1848- 1936م) صاحب الوعد المشؤوم.

والملاحظ هنا على هؤلاء الساسة والقادة الذين احتضنوا نصوص التوراة أنهم لم يكتفوا بالتنظير كما فعل بعض مفكري وفلاسفة أوروبا بل إنهم أنزلوا النصوص إلى واقع الحياة وحولوا الوعد إلى أرض وكيان وأسهموا كل بطريقته في تنفيذ حرفية النص التوراتي حتى ظهر في النهاية ذلك الكيان الإسرائيلي المزروع قسرا.

أما في الولايات المتحدة فقد سيطر هذا البعد التوراتي على الذهنية الأمريكية بشكل ملفت للنظر واقترب من قمة صناعة القرار الأمريكي متمثلا في عدد كبير من رؤساء الولايات المتحدة، فبعيدا عما وفره الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون من دعم عسكري وتسليح إلى دعم سياسي ومساعدات اقتصادية لإسرائيل.. وبعيدا أيضا عن الجانب الاستراتيجي الذي تمثله إسرائيل للولايات المتحدة وهو ما سنطرحه بالتفصيل فيما يلي.. بعيدا عن كل تلك الجوانب علينا أن نغوص في أعماق هؤلاء الرؤساء ونتعرف على الجوانب الإيمانية والعقائدية التي تربطهم بإسرائيل.

فلم يكن موقف جورج بوش الابن هو بداية العمل وفقا للأصولية الإنجيلية والمفاهيم التوراتية، بل إن هناك قائمة لبعض رؤساء الولايات المتحدة الذين مارسوا هذا الدور واتخذوا مثل هذه المواقف بطرائق مختلفة.

وربما تبدأ القائمة بالرئيس جيفرسون مرورا بالرئيس بنجامين هاريسون وكذلك الرئيس وودرو ويلسون (1856- 1919م) الذي امتدت فترة رئاسته من (1913- 1921م) وويلسون كان بروتستانتيا إنجيليا يؤمن بالتوراة التي ربطت اليهود بالأرض المقدسة وقد أحاط نفسه بعدد كبير من المستشارين اليهود، وعلى الرغم من إصداره مبادئه الأربعة عشر- الشهيرة التي لم تطبق كان متعاطفا مع الحركة الصهيونية ومؤيدا لأهدافها ولهذا كان واحدا ممن أيدوا صدور وعد بلفور وأسهموا في تنفيذه.

ففي أغسطس (1918م) أعلن التأييد الصريح لهذا المشروع عندما قال: (أعتقد أن الأمم الحليفة قد قررت وضع حجر الأساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا).

ولم يكن هذا هو حال ويلسون فقط في التعاطف مع اليهود وتأييد وعد بلفور بل إن أكبر المؤسسات السياسية الأمريكية (مجلس الشيوخ والنواب) قد أصدر ما يشبه هذا الوعد وذلك في تاريخ (2003/9/11م) وذلك في قرار كان نصه: (يقرر مجلس الشيوخ الأمريكي ومجلس النواب الأمريكي بأن أمريكا تعطف على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين).

وربما لم يشتهر هذا القرار مثل وعد بلفور المشؤوم لأن الثاني كان له سبق الريادة من ناحية وكانت الدولة التي أصدرته وقتها تحتل جزءا كبيرا من الوطن العربي وتعربد في جسده، وكذلك لما أثاره هذه الوعد المشؤوم من ردود أفعال.

بل إن الأغرب من ذلك أن الولايات المتحدة قد شهدت ما يشبه وعد بلفور وسبقت بذلك بريطانيا بوقت بعيد ففي مارس (1891م) تقدم عدد من السياسيين وأعضاء الكونجرس ونخبة من المجتمع الأمريكي وعلى رأسهم القس وليم بلاكستون بعريضة إلى الرئيس الأمريكي بنجامين هاريسون يؤيدون فيه إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

على كل حال فقد بدأت الولايات المتحدة تولي المنطقة العربية اهتمامها منذ العشرينات من القرن الماضي في الوقت الذي بدأ فيه النفوذ الصهيوني يزداد ويستقوى وتتجمع كل الخيوط لترسم في النهاية مكاناً للكيان الإسرائيلي في قلب العالم العربي.

وحتى قبل قيام الكيان الإسرائيلي وجد من الرؤساء الأمريكيين من تبنى هذه الرؤية التوراتية والتعاطف مع اليهود مثل الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت (1882-1945م) والذي كان في الأساس يهوديا حيث اتسمت فترة رئاسته الطويلة بتسريع تهويد قطاعات كبيرة من أوجه الحياة الأمريكية حيث حكم البلاد منذ مارس (1933م) وحتى عام وفاته (1945م) ففي تلك الفترة لم يكن مستغربا أن ترى شعار نجمة داوود وسليمان هو الشعار الرسمي لدوائر البريد وبعض فرق الجيش والشرطة تيمنا بدلالات هذه الرموز.

ولم يقتصر الأمر على تهويد المجتمع الأمريكي في عهد روزفلت بل إن له مواقف دعمت التحرك اليهودي المبكر لتأسيس الدولة/ الحلم ومنها أنه رفض بل ومارس ضغوطا على الحكومة البريطانية حتى لا تعرقل الهجرات اليهودية إلى فلسطين كما نص على ذلك الكتاب الأبيض الذي أصدرته بريطانيا عام (1939م).

ثم جاء خليفته الرئيس هاري ترومان (1884- 1972م) الذي استمرت فترة رئاسته من (1945- 1952م) في فترتين رئاسيتين، وترومان معمداني بل إنه ينتمي إلى سلالة يهودية ويؤمن بفكرة البعث اليهودي وكان يصرح دائما بأن كتابه المفضل

هو التلمود[٥] والملفت أن ترومان وصل إلى الدرجة ثلاثة وثلاثين في المحافل الماسونوية وهي نفس المرتبة التي وصل إليها الرئيس آيزنهاور والرئيس جيمي كارتر.

وبالعودة إلى الرئيس ترومان ذلك الذي شهد فترة حكمه غرس الكيان الإسرائيلي وقيامه عام (1948م) فكان اعترافه بهذه الكيان بعد وقت قصير من إعلان قيام إسرائيل، حيث ارتبط بهذا الكيان ارتباطا عاطفيا مؤثرا ربما أشبه بقصص الفرسان القديمة، فقد قال له الحاخام الإسرائيلي الأكبر سنة (1949م) (إن اللـه وضعك في رحم أمك لتكون الأداة لتحقيق إعادة ولادة إسرائيل بعد ألفي سنة) ولم يتحمل قلب ترومان المفعم بالإيمان هذا الإطراء وذلك الشرف فانهمرت دموعه تأثرا بتلك الكلمات!!

ومنذ تلك اللحظات التي شهدت قيام الكيان الإسرائيلي لم يفد على البيت الأبيض رئيس أمريكي إلا وغازل إسرائيل وكال لها المديح بالكلمات حينا وبالمواقف أحيانا أخرى، وهذا التوجه الموالي لإسرائيل سبق وصرح به أكثر من رئيس ومنهم ليندون جونسون الذي استلم الحكم في نوفمبر (1963م) بعد اغتيال جون كينيدي ففي خطاب له ألقاه أمام جمعية بناي برث كذلك بعمق كبير بأن اليهود الذين نجوا من المذبحة الكبرى يستحقون أمتهم الخاصة وأن لهم الحق في أن يعيشوا بسلام جيرانهم واعتبرت أن هذا الوطن لليهود يتوافق مع تعاليم الكتاب المقدس ولذلك فهو مقدر من اللـه.. هذه المعتقدات الأخلاقية والدينية جعلت التزامي بسلامة إسرائيل لا يتزعزع.

وربما آثرنا أن نورد هذه العبارة الطويلة لأنها تحمل تلك المعاني الحقيقية والدلالات الكاشفة عن مكنون الكثير من صناع القرار الأمريكي على مدى عقود طويلة فليس التأييد المطلق من جانب هؤلاء لإسرائيل هو من جل كسب أصوات الناخبين اليهود، وذلك وإن كان صحيحا فإنه يعبر عن جانب نفعي براجماتي ولا يعبر عن جوانب الشخصية الأخرى وعلى رأسها الجانب القيمي والديني.

وهذا ما أكدته جريدة (الإيكونوميست) في عددها بتاريخ (6ديسمبر 1984م) عندما تحدثت عن النواحي الإيمانية في حياة الرئيس رونالد ريجان فقد ذكرت تقول:

(إن اعتقاد الرئيس بـالتنبؤات التوراتيـة تجذبـه لإسرائيـل أكـثر مـن الحاجـة لكسب تأييد الناخبين والمؤيدين لإسرائيل، وأقرب مساعديه يقولون إنـه يـؤمن بقـوة بنبوءة سفر الرؤيا من الكتاب المقـدس بشـأن معركـة أرماجـدون في الشرق الأوسـط ويؤمن بالحاجة لمساعدة إسرائيل إذا أدت الأحداث إلى وقوع هذه المعركة[7].

والرئيس ريجان لم يخف إيمانه بهذه النبوءات وخاصة معركة هرمجدون بـل إنه يطرحها في كل مناسبة ففي حوار له مـع المـدير التنفيـذي لمنظمـة إيبـاك نشرتـه جريدة جيروزاليم بوست بتاريخ (1983/10/28م) قال: (حيـنما أتطلـع إلى نبـوءاتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلامات المنبئة بمعركة أرماجدون أجد نفسي متسـائلا عما إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك واقعا).

فالرئيس ريجان الذي كـان ممـثلا خـرج مـن رحـم هوليـوود ليصـبح حـاكما لولاية كاليفورنيا ورئيسا لأمريكا منذ عـام (1981م) وحتـى عـام (1988م) ويرتمـي في أحضان السياسة لم يكن يقول هذا الكلام في عرض سينمائي بل إنه تعبـير عـن عقيـدة راسخة وإيمان مطلق بنبوءات الكتاب المقدس والتي كان يتمنى أن تنطبق على زمانه ليحظى بشرف المشاركة فيها، ولم تكن تلك رؤية وحده بل شاركه فيها الرجـال الـذين التفوا حوله، ففي عهده نما تيار المحافظين الجدد وقويت شوكته وهؤلاء هم مهندسو الحرب على العراق الآن وسوف نتكلم عن ذلك لاحقا.

فما كان يميز عهد ريجان هـو انسـجام الإدارة الأمريكيـة وربمـا اتفاقهـا عـلى هدف واحد هو الولاء لإسرائيل، فقد قال وزير خارجيته جـورج شـولتز أثنـاء انعقـاد المؤتمر السنوي للجنة الشـؤون العامـة الأمريكيـة الإسرائيليـة إيبـاك: (إن الأمـريكيين يعرفون أننا ليس لنا صديق نعتمد عليه في العالم أكثر مـن إسرائيـل) ووصـفها شـولتز بأنها (شريك في السعي إلى تحقيق الحرية والديمقراطية وشعب يشترك معنا في أسمى المثل).

إنها تلك المثل المشتركة هي التي جمعت كل هـؤلاء الرؤسـاء الـذين تعـاقبوا على إدارة البيت الأبيض ولم ينكروا في وقت من الأوقـات ولاءهـم الـديني والسـياسي لإسرائيل بحيث بدا في وقت من الأوقات أن الدين يحكم السياسـة ويحـدد مسـاراته، وهذا

ما طرحه الرئيس جورج بوش الأب عندما أعلن إشادته بلجنة يهود أمريكا في مايو (2001م) مؤكدا على دور الدين في السياسة الخارجية لأمريكا، واعتبر أن أهم أولوياته هو ضمان أمن إسرائيل لأن شعب إسرائيل- حسب تعبيره- هم أبناء إبراهيم النبي!!

***رؤساء أمريكا من يجرؤ على الكلام:

ومن الطريف أن معظم هؤلاء الرؤساء الأمريكيين الذين أظهروا الولاء والطاعة لإسرائيل لأسباب عديدة على رأسها الجانب الإيماني، إذا حاول أحدهم أن يلوي ذراع إسرائيل لسبب أو لآخر فإنه حتما سيواجه المصير المحتوم والأمثلة على ذلك عديدة.

فالأرض قد تتحرك من تحت الأقدام والسماء قد تعربد وتنذر بالصواعق على من يجرؤ بالحديث عن ما يزعج إسرائيل وقادة إسرائيل وشعب إسرائيل..!! والتاريخ الأمريكي نفسه يزخر بمثل هذه الدلالات.

فالرئيس الأمريكي جيرالد فورد- وصل إلى سن التسعين في يوليو (2003م) وتسلم الحكم في أغسطس عام (1974م) بعد فضيحة نيكسون قد انتقد موقف إسرائيل من رفضها مغادرة سيناء بعد حرب (1973م) ولهذا علق المعونات الأمريكية لإسرائيل لمدة ستة أشهر سنة (1975م) بل وتجاوز ذلك عندما دعا إلى إعادة تقييم العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

والملفت أن الرئيس فورد قد تراجع عن كل هذه الخطوات بعد ذلك بأسابيع والسبب الرئيسي هو أن حوالي ستة وسبعين سيناتور قد وقعوا رسالة تأييد ومساندة لإسرائيل وأعدت هذه الرسالة لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية إيباك وطالبت الرسالة الرئيس الأمريكي بأن يحذو حذوها في مساندة إسرائيل.

وعلى الرغم من ولاء جيمي كارتر الواضح لإسرائيل ولليهود- كما أوضحنا سابقا- فإن رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة عقدوا مؤتمرا في سبتمبر (1977م) ضم ستين شخصية من اللوبي الصهيوني وكانت المسألة المطروحة

أمامهم هي: ما الخطوات التي يجب أن تتبعها المنظمات اليهودية في حالة إقدام إدارة كارتر على تغيير سياستها إزاء منظمة التحرير الفلسطينية وقيامها بإجراء مفاوضات معها؟!

وعلى الرغم كذلك من السياسيات التي انتهجها بوش الأب في خدمة إسرائيل إلا أنه عندما ارتكب خطأ بل خطيئة من وجهة النظر الإسرائيلية عندما ضغط على إسرائيل في قضية توطين مهاجرين جدد في فلسطين أثار ذلك سخط إسرائيل حتى وصل به الحال إلى خارج البيت الأبيض فقد حاول بوش الأب عام (1991م) أن يؤجل- مجرد تأجيل- دفع ضمانات قروض بقيمة عشرة ملايين دولار من أجل بناء مستوطنات إسرائيلية تستوعب المهاجرين الروس، عندها غضب إسحق شامير الذي كان رئيسا لوزراء الكيان وتحركت منظمة إيباك بل كل مؤسسات اللوبي اليهودي لتعبئة المجتمع اليهودي في أمريكا وبدأ الهجوم يتزايد عليه بشكل ملفت وأدى ذلك إلى انحدار نسبة التأييد اليهودي له في الانتخابات.

ونحن لم نختلق هذا السيناريو أو نؤلفه من نسج الخيال بل إن هذا ما أقر به موشيه أرينز وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق في كتابه (العهد المنكوث) الذي أوضح من خلاله أن سياسة اللوبي اليهودي عملت على تحطيم فرص إعادة انتخاب بوش الأب بسبب تدخله السافر في الشؤون الإسرائيلية!!

وحدث ذلك أيضا مع بوش الابن ولكن بدرجة مختلفة لم تصل به بعد إلى خارج البيت الأبيض، عندما وجه اللوم- الخفيف- إلى شارون على ما حدث في جنين وطالبه بسحب قواته، فقد تعرض عندها لحملة منظمة وصلت إلى حد تشبيه بوش بياسر عرفات! ووصلت أصداء الحملة إلى داخل الحزب الجمهوري نفسه الذي من المفترض أن يدعم بوش.. ولهذا أدرك خطورة ما أقدم عليه فتراجع والمفارقة المضحكة أنه منح شارون بطل المذابح لقب (رجل السلام)!!

فلا يجب أن تمارس الضغوط بأي شكل من الأشكال على إسرائيل لأن هناك عيونا تراقب وأيدي تضغط على من يضغط، ففي نوفمبر (2001م) كتب تسعة وثمانون عضوا في مجلس الشيوخ من إجمالي مائة عضو رسالة إلى بوش يطالبون

حكومته بأن لا تمارس ضغوطا على إسرائيل وألا تحاول الحد من قدرتها على تصفية المقاومة الفلسطينية والوقوف ضد العمليات الاستشهادية.

وحتى عندما انتقد البيت الأبيض من خلال تصريحات بوش الابن محاولة الكيان الإسرائيلي اغتيال عبد العزيز الرنتيسي- أحد قيادي حركة حماس وبعبارة مخففة تعبر عن الانزعاج بسبب هجمات المروحيات الإسرائيلية والتي استهدفت إحداها عبد العزيز الرنتيسي ثم أشار التصريح إلى أن هذه الهجمات لا تساعد أمن الدولة العبرية.

وهنا تحركت آلات الضغط الصهيوني فبعث حوالي أربعة وثلاثين نائبا من الحزب الديمقراطي رسالة إلى بوش الابن يشكونه بسبب انتقاده وجاء في هذه الرسالة: (لقد هالنا بشدة سماع انتقادكم لإسرائيل بسبب محاربتها لأعمال الإرهاب..) ثم تؤكد الرسالة على أن الهجوم على الرنتيسي- كان مبررا تماما بوصفه تطبيقا لحق إسرائيل في الدفاع عن النفس.

وحتى الحزب الجمهوري اشترك مع الحزب الآخر في لومه لبوش الابن ولهذا تراجع بشكل ملفت بل وانقلب إلى عداء سافر لحركة حماس واعتبرتها الإدارة الأمريكية (عدوة السلام) وأظهر على لسان كولن باول تأييدها لسياسة الاغتيالات بحق رجال وكوادر حركة المقاومة!!

وعلينا أن نؤكد هنا أن مثل هذه الانتقادات- المخففة- لإسرائيل أو المواقف التي تبدو ظاهريا معادية لإسرائيل والتي يهلل لها الكثير من العرب، لا تنم عن استراتيجية متبعة في كل الأحوال بل هي تأتي أحيانا كموازنة في ردود الأفعال والدليل على عدم تأصلها في الإدارات الأمريكية أن الكثير منها يتراجع عن مثل هذه الانتقادات بل ويتخذ مواقف مضادة تماما استجابة لانتماء شخصي- وكذلك استجابة لضغوط جماعية.

وعلينا أيضا أن نستوعب نقطة هامة بل وخطيرة وهي أن الطموحات اليهودية أكبر من الأفراد، إنها قد تحولت بفعل الزمن إلى ثوابت ولهذا فمن يأتي ليغير أو يتعارض مع تلك الطموحات الثوابت مهما كان دوره وولائه لليهود يجب أن يتراجع وربما تكسر شوكته إن كان له شوكة.. وربما لا يوجد عبر التاريخ الأمريكي إلا نماذج

قليلة تصل إلى حد الندرة خالفت هذا التوجه ومن هؤلاء الرئيس الأمريكي ينجامين فرانكلين الذي يعد استثناء لهذه القاعدة عندما أعلن سنة (1789م) تخوفه من الخطر اليهودي على الأمة الأمريكية!!

لكن فرانكلين وغيره لا يمثلون سوى تيار ضعيف أمام تيار جارف انسحب على كل صناع القرار الأمريكي الذين ينتمي معظمهم إن لم يكن كلهم إلى التربية البروتستانتية باستثناء الرئيس جون كندي الذي كان كاثوليكيا.

والمؤسف في الأمر أن هذه المعطيات السابقة لم تنبه الكثير من منظري الفكر العربي وسياسييه الذين نظروا دائما إلى علاقة هؤلاء الرؤساء الأمريكيين بإسرائيل من جانبها السياسي والاستراتيجي بعيدا عن البعد الديني والعقائدي، وهو ما غاب أيضا في تفهم أبعاد الحرب الأخيرة التي قادها بوش الابن وتيار المحافظين الجدد الذين يتقاسمون معا ميراثا واحدا وهو التوراة.

*****مرجعية الرئيس بوش الابن وأثرها قرار الحرب:**

لماذا قررت الإدارة الأمريكية برئاسة بوش الابن خوض الحرب؟! سؤال لم يكن يطرح في فترة الإعداد للحرب أو أثناء اندلاعها مثلما طرح بعد انتهاء الحرب في العراق، فقد حاولت الإدارة الأمريكية أن تسوق المبررات التي تدفعها لقرار الحرب لكن هذه المبررات لم تعد تقنع الكثيرين حتى الذين صوتوا لصالح القرار فيما مضى.

ولسنا هنا معنيين بمقولات الإدارة الأمريكية المعلنة مثل مقاومة الإرهاب عندما ربط اسم العراق بما يسمى الإرهاب الدولي وبتنظيم القاعدة، أو ما قيل عن القضاء على أسلحة الدمار الشامل التي يملكها العراق، لأن هذه المقولات ثبت أنها مخادعة وقد اكتشف ذلك ليس المفكرون أو الساسة العرب بل الأوساط الأمريكية والأوروبية ذاتها بحيث واجه تحالف بوش بلير انتقادات واسعة وموقفا حرجا يهدد مستقبلهما السياسي.

فعدم العثور على أسلحة دمار شامل في العراق أصبح هاجسا يهدد بشدة الإدارة الأمريكية وحليفتها بريطانيا، لأن ملف أو مبرر وجود هذه الأسلحة كان ذريعة

أو بالأحرى كذبة لفقتها واخترعتها الإدارة الأمريكية، وعلى أثر انكشاف هذه الكذبة ظهرت حملة واسعة ضد الإدارة الأمريكية والبريطانية وخاصة حول تقرير باول الذي أعلنه يوم (2003/2/5م) أمام مجلس الأمن وما زعمه من معلومات حول وجود مختبرات عراقية متجولة لصناعة الأسلحة وحول استيراده لمادة اليورانيوم من النيجر وهي العبارة التي أكد عليها بوش الابن أكثر من مرة.

إضافة إلى فضيحة التقرير الذي قدمه توني بلير واتمدته حكومته والذي تبين أن جزءا منه نقل عن رسالة ماجستير لطالب عربي في أمريكا.. ولهذا راح الكثيرون من محللين واستخباراتيين وأعضاء في المؤسسات الحكومية- حتى هانز بليكس كبير المفتشين الدوليين- يشككون في استنتاجات الحكومة الأمريكية بشأن الأسلحة البيولوجية.

وهذا اللغط القائم يؤكد بشدة أن هناك أهدافا للحرب قد أعلنت وأخرى استترت خلف الأقنعة وحركت الآلات الإعلامية والعسكرية والسياسية لدعم قرار الحرب، وهذا الأهداف المستترة التي تنكشف رويدا تنسجم مع التوجه الذي تبناه الكثير من رؤساء الولايات المتحدة في علاقاتهم بالكيان الإسرائيلي.

ولا يبتعد هذا التوجه عن أهم شخصية من المفترض أنها تقود زمام الأمور في الولايات المتحدة وبالتالي في بقية أنحاء العالم إنه السيد بوش الابن فإذا كنا نتحدث عن وجود رؤية توراتية مختفية وراء الستار تحرك أهدافا معلنة وظاهرة للحرب على العراق فلا بد من الولوج إلى عقلية بوش الابن الذي تعد سيرته ترجمة حقيقية لسيطرة الرؤية التوراتية على دوافع الحرب وحتى دوافع السلوك.

فلم يعد خافيا في الأوساط الأمريكية ولدى المحللين والمراقبين ما يتردد عن إيمان بوش الابن ومدى التزامه الديني وتوقيره للدين اليهودي بل وتقديسه العجيب للتوراة، وليس غريبا أن يرتبط بمجموعة تسمى (رابطة درس التوراة) فسلوكه وتصرفاته تنطوي كما هو واضح على أبعاد دينية (ميثولوجية) وتحديدا توراتية كان لوجود نخبة إنجيلية تلفت حوله دورا في تحويله من السُكر إلى الشُكر ومن الخواء والاغتراب إلى التبعية والاستلاب.

فقد تـأثر بـوش الابـن إلى حـد كبـير بتعـاليم القـس البروتسـتانتي فـرانكلين جراهام الـذي تربطـه بـه علاقـة جيـدة وهـو واحـد مـن رواد المسـيحية الصـهيونية المعاصرة في الولايات المتحدة هو وأبوه القس بيللي جراهـام واللـذان يسـاندان بقـوة ويواليان إسرائيل، حيث لعب هذا القس دورا واضحا في تغيير قناعات بوش بل وكافة جوانب حياته ولعل الطائفة الإنجيلية التـي ينتمـي إليهـا جراهـام وبـوش الابـن قـد قفزت إلى المشهد الديني والسياسي بشكل واضح، وهي واحدة من الطوائف العديدة التي انشقت وتفرعت عـن البروتسـتانتية Protestantism مثـل طائفـة المعمـدانيين والدهريين والمتجددين والسبتيين وشهوده يهود.. إلى آخر هذه الطوائـف التـي مـن أهمها وأخطرها الطائفة الإنجيلية أو ما تسمى المذهب الأنجليكاني Anglicanism.

والملاحظ أن هذه الطوائف البروتسـتانتية تجتمـع كلهـا عـلى اعتبـار التـوراة المصدر الوحيد والموثوق به في معرفة تاريخ العالم وحـاضره ومسـتقبله، وبـوش الابـن نفسه لا يخفي في مواقف مختلفة مدى إعجابه بالتوراة و توقيره لها.

ومن باب تأثر الابن بأبيه فليس بعيدا عن توجه بـوش الابـن مـا كـان عليـه بـوش الأب مـن احـترام وتـوقير للرؤيـة التوراتيـة، وتجسـيد ذلـك التماهـي اليهـودي الأمريكي، فقد قال في أثناء حملته الانتخابية عـام (1992م) (إننـي هنـا أمثـل أمريكـا التي تمثل بدورها الحضارة اليهودية المسيحية التي تقود عالم اليوم بلا منافس)!!

وهو ما طرحه الابن عندما ارتكز على الاعتبارات الأخلاقية في مسيرة الولايات المتحـدة إلى درجـة اعتبارهـا أمـة إلهيـة، فقـد ذكـر بـوش الابـن في خطابـه يـوم (1يونيو 2002م) في كلية (ويست بوينت) العسكرية أن أمريكـا (تلـك الأمـة الإلهيـة التي تقودها اعتبارات أخلاقية غير قابلة للتفاوض وعلى فضائلها أن تنطبق على العالم بأسره).

وما لم يقله بوش في هذه العبارة هـو أن تلـك الأمـة الإلهيـة تـرتبط بـاليهود شعب اللـه المختار ارتباطا كبيرا حسبما أكد فرانك جامني رئيس المؤسسة الصهيونية المعروفة باسم (مركز السياسة الأمنية) عندما قال: (إنني أعتقد أن جورج بوش يقـف معنا بقلبه وروحه) ولهذا نجد أن معظم الأعضاء ذوي النفوذ في إدارة بوش الابن من

اليهـود وهـو مـا أشـارت إيـه مجلـة (ويرلـد أنـد نيـوز ريبـورت) في عـددها بتـاريخ (12سبتمبر 2002م) .

هذه الأبعاد الإيمانية التي حولت بوش الابن منذ عـام (1986م) مـن شـخص معاقر للخمر والشراب إلى شخص آخر، أثرت على منهجه ومواقفه السياسية وجعلتـه أيضا يزداد ارتباطا- روحيا- بأرض اليهود المقدسة وذلك الملمح في شخصية بوش الابـن رصده أكثر المقربين منه.

يقول مات بروكس الذي يرأس التحالف الجمهوري اليهـودي في أمريكـا: (إن جورج دبليو بـوش وبسـبب إيمانـه الـديني العميـق يعتقـد أن إسرائيـل هـي وطنـه الروحي بقدر ما هي وطن روحي لي أنا اليهودي).

ومات بروكس صديق شخصي لبوش ويدرك جيدا مدى محبة بـوش لإسرائيـل وولائه لها وهو الذي رتب زيارة بوش للكيان الإسرائيلي عـام (1998م) قبـل أن يصـل إلى إدارة الولايات المتحدة.

فلا يمكن بحال من الأحوال اعتبار هذه المحبة وذلك الولاء مجرد منهج سـياسي بعيـد عن التأثيرات الدينية والمعتقدات التي تحـرك بـوش ذاتـه، وقـد فسر ذلـك الحاخـام ميشيل اكستاين وهو من الشخصيات الرائدة والبارزة في العلاقات اليهودية المسيحية (الإنجليكانية) حيث يؤكد البعد الديني لدى بـوش قـائلا: (إن سياسـة الـرئيس بـوش تنبع من صميمه كمسيحي ومفاهيمه للصواب والخطأ والخير والشر ومن الحاجة إلى الوقوف ومحاربة الشر..).

ثم يأتي إلى القضية الجوهرية مؤكدا أن تلك النزعة الإيمانية لـدى بـوش هـي التي تفسر ولائه لإسرائيل وليس البعد السياسي يقول: (إنني شخصـيا أؤمـن أن هـذه مسألة شخصية جدا- يقصد ولائه لإسرائيل- وليست سياسية من جانبه).

ولهذا احتفى اليهود بإدارة بـوش الابـن سـواء مـن كـانوا في داخـل الولايـات المتحدة أو في الكيان الإسرائيلي، فهذا هـو تومـاس نيومـان المـدير التنفيـذي للمعهـد اليهودي للأمن القومي جينزا يصف إدارة بوش ويشجع تعاونها مع الكيان الإسرائـيلي ويقول: (إن هذه أفضل حكومة بالنسبة إلى إسرائيل منذ هاري ترومان).

لكن لماذا اعتبر نيومان حكومة بوش الأفضل منذ ترومان الذي كان أول من اعترف بالكيان الإسرائيلي عام (1948م) إن السبب واضح هو تلك الرؤية المشتركة التي تتبناها واشنطن وتل أبيب في أكثر القضايا المصيرية.

*****بوش وشارون.. علاقة أكثر من حميمة:**

لقد لفت أنظار الكثيرين مدى تطابق السياسات التي اتبعها كل من بوش وشارون وهو ما أكده نيو مان بقوله: (إن تل أبيب وواشنطن تشتركان في نظرة واحدة حول الإرهاب والسلام مع الفلسطينيين والحرب على العراق..) واعتبر نيومان أن السبب الرئيسي في ظهور هذا النهج المشترك أحداث (11سبتمبر 2001م) وما تبعها من متغيرات.

وربما نتفق معنيومان في أن أحداث (11سبتمبر) كانت حدا فاصلا ومرحلة انتقالية في تأطير العلاقة بين الولايات المتحدة والكيان، وهذا ما طرحه الكثيرون، لكن ما نختلف فيه مع هؤلاء أن تكون تلك الأحداث هي السبب الرئيسي لهذا التقارب، فكل ما في الأمر أن هذه الأحداث قد ساعدت على ظهور معالم العلاقة إلى العلن.

فمن المؤكد أن الإدارات الأمريكية المتوالية كانت تشترك في الرؤى والأفكار والتحركات والاستراتيجيات مع الكيان الإسرائيلي وهذا لم يعد مجرد شك، لكن ربما في بعض الأوقات كان هذا التقارب والعمل المشترك يحاط بالسرية والتكتم لأسباب ودواعي مختلفة، وكل ما في الأمر أن أحداث (11سبتمبر) عجلت ما كان مؤجلا وأعلنت بعض ما كان يمارس في الخفاء.

وهنا يتقاطع الملف العراقي مع القضية الفلسطينية بشكل واضح لدى الإدارة الأمريكية وحكومة الكيان على السواء، وهذا ما أكده صموئيل بيرجر مستشار الأمن القومي السابق للرئيس كلينتون الذي قال: (إن حكومة بوش الحالية ترى أن العراق هو التحدي المركزي وقد أسهمت في حلحلة الوضع وفك الارتباط الأمريكي بأي جهد ملموس لمجابهة المشكلة العربية الإسرائيلية).

ولهذا فإن التوافق الشخصي بين بوش وشارون يعد ملمحا أساسيا من ملامح الشراكة الأمريكية الإسرائيلية، فعلاقة بوش وشارون جيدة بل ممتازة وصول بوش الابن إلى البيت الأبيض في يناير (2001م) وانتخاب شارون في فبراير (2001م)، وحتى قبل وصولهما إلى الحكم كانت العلاقات قوية فقد حلقا معا فوق الأراضي الفلسطينية في عام (1998م) في الوقت الذي كان بوش حاكما لولاية تكساس وشارون وزيرا للخارجية.

والاثنان بوش وشارون تتقارب مرجعياتهم الدينية، فالرئيس الأمريكي بروتستانتي متدين يقر بأهمية إسرائيل، وهذا ما أكده الدكتور برنارند رايش أو رايخ الأستاذ في جامعة جورج واشنطن والذي ألف ثلاثة كتب عن العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل حيث يقول: (إن وجهة النظر المسيحية البروتستانتية هذه تتوافق تماما مع نظرة شارون..) فكل منهما يرتكز على مصادر واحدة للمعرفة الدينية كما يقول برنارد رايش: (الاثنان يفسران الكتاب المقدس بالطريقة ذاتها).

وقد ترجم هذا الاتفاق الديني إلى واقع سياسي من خلال تفاهمات عديدة بين بوش وشارون في العمل السياسي وقد اتضحت بشكل كبير منذ يونيو (2002م) عندما تبنى بوش وجهة نظر شارون بشأن الفلسطينيين واتفاقه معه على أن إزاحة عرفات وتهميشه هو شرط أساسي لاستكمال مسيرة السلام وهو ما أعلنه بوش صراحة في خطابه الذي ألقاه في يونيو (2002م). ولهذا لم يكن مستغربا أن يمنح بوش صديقه شارون لقب (رجل السلام) ولم يكن مستغربا أيضا أن يطلعه على خطة الحرب الأخيرة على العراق ويضعه في مقدمة من أطلعوا على هذه الخطة، ولعل البعض يفسر مثل هذه العلاقة الحميمية بين الطرفين بسبب تمتع شارون بدعم قوي من أوساط اليمين الأمريكي المحافظ (المحافظون الجدد) وهو أحد دعائم بوش الانتخابية التي سمحت له بالفوز في نوفمبر (2000م). لكن الحقيقة أن الرابط بينهم أكبر من الرضوخ لضغوط تيار أو أكثر إنه رابط روحي وإيماني، لكن هذه الإشارة تجعلنا بدورنا نتساءل عن (المحافظين الجدد) مهندسي الحرب على العراق ومحركي الرأي العام الأمريكي وأقوى المؤثرين عليه، وهو ما سنلقي الضوء عليه في الفصل التالي.

الفصل الثالث

البيئة الفكرية والسياسية للمحافظين الجدد..

الفصل الثالث

*****البيئة الفكرية والسياسية للمحافظين الجدد:**

ربما لم يثر اصطلاح من الجدل وكثير من الريبة أثناء الحرب الأخيرة على العراق مثلما أثار اصطلاح (المحافظين الجدد) الذي سيطر على المشهد السياسي والثقافي وطرح مرات عديدة ليس على المستوى العربي فحسب بل في داخل أوروبا والولايات المتحدة ذاتها.

بداية من رؤساء ووزراء، وبالإضافة إلى هؤلاء ظهر عدد لا يحصى من أعضاء الكونجرس الأمريكي وعدد أكثر من المبشرين الإنجيليين وصولا إلى ما يطلق عليه اليوم بالمحافظين الجدد أو الأوصوليين الإنجيليين، ونستطيع أن نطلق عليهم أيضا (التوراتيين الجدد).

وقبل أن نتحدث عن (المحافظين الجدد) ودورهم في صنع السياسة الخارجية الأمريكية وخاصة موضوع الحرب على العراق، لا بد أن نلقي الضوء على خطوط ومعالم الصورة التفصيلية التي كرست هذا التيار وأسهمت في بروزه بقوة على الساحة، واصطلاح (المحافظين الجدد) يتقاطع مع أكثر من محور حصرناهم في أربعة محاور، الأول هو المفهوم العام لليمين واليسار والثاني دور الجالية اليهودية أو اللوبي الصهيوني، والثالث اليمين المسيحي المتشدد والرابع النظام السياسي الأمريكي بما فيه من أحزاب أو سلطات تشريعية وتنفيذية.

فهذه الخطوط أو المحاور الأربعة هي التي تشكل منظومة ما يمكن تسميته (المحافظين الجدد) ولذلك لا يمكن أن نتعرف على هؤلاء عن قرب بدون الدخول في تلك المحاور إذ أن الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية.. لا تخرج من فراغ فلا بد لها من إرهاصات وروافد تمدها بأسباب القوة والاستمرار.

ولو تدبرنا الأمر سنجد أن ليس كل المحافظين الجدد ينتمون إلى اليمين أو إلى اليسار وليس كلهم من اليهود أو من المسيحيين المتشددين وليس كذلك كلهم ينتمون إلى الهرم السياسي الأمريكي بما فيه الأحزاب أو السلطة التشريعية والتنفيذية.. بل إنهم

خليط من كل هؤلاء الذين جمعتهم نقاط مشتركة وأهداف واحدة أكثر مما فرقتهم على الرغم من اختلافهم أحيانا بل وتصارعهم في أحيان أخرى.

ومن أجل شمولية الصورة لا جزئيتها ولكي نتعرف عن قرب على هـؤلاء لابـد من الولوج إلى ذلك العالم المعقد والمتشابك في تلك المحاور التي أكدنا عليها.

***مفهوم اليمين واليسار:

لن نتعمق كثيرا في دراسة هذين المصطلحين وما حولهما مـن ظـلال فلسـفية وسياسية واجتماعية فليس ذلك موضـع دراسـتنا، ولكننـا أردنـا التأكـد عـلى أن أصـل المصطلحين جاء من تعبيرات نيابيـة فكـان يقصـد باليسـاريين المغـالين في معارضـتهم لأنهم كانوا يجلسون في يسار المجالس النيابية ومن ثم عرف اليميني بأنه الـذي يميـل إلى الاعتدال أو المحافظة وكانت مقاعدهم في يمين المجالس النيابية.

أيا كان الأمر فقد خرجت هذه المصطلحات بشكل واسع من حـرم البرلمانـات حتى أصبحت تصلح لنعت الآراء والمذاهب والأفكار السياسية والاجتماعية والدينية.. وتلونت مع الوقـت هـذه الاصـطلاحات حتـى أضـيف إليهـا (أقصى- اليسـار واليسـار ووسط اليسار والوسط ووسط اليمين واليمين وأقصى اليمين..).

أما اليمين الجديد فهو مصطلح مبهم أحيانا لكنه يستخدم للدلالة على التيار الذي أدان وبشدة ليبرالية القـرن التاسـع عشر- فقـد سـيطرت البيراليـة Liberalism (التحررية) على أوروبا خاصـة بعـد عصر- النهضـة وكرسـت مفهـوم الحريـة الفرديـة بحيث اعتبرت هذه الآراء أن الإنسان هو السيد وبالتالي تمردت على كثير مما طرحتـه الكنيسة ورفضت الأفكار والمصطلحات الدينية كما حـدث في إنجلـترا وفرنسـا وألمانيـا من خلال كتابات هوبز ومونتسكيو وجون استيوارت ميل وجون لوك.

فقد اعتبرت التحررية هي آلـة الحـرب عـلى النظـام القـديم وخاصـة قضـية الدين ولهذا نادت آراء معظم الكتاب والفلاسفة الليبراليين عـلى ضرورة فصـل الـدين عن الدولة والنظر إلى القضايا السياسـية والاجتماعيـة نظـرة علمانيـة حيـث اعتـبرت العقائد الدينية أمورا شخصية تساعد الفرد ولكن ليس لها قيمة سياسية في حد ذاتها.

ولقد جاءت الليبرالية كرد فعل طبيعي لتبجيل العقل والمنطق والعلم وكرد فعل لممارسات الكنيسة في العصور الوسطى، وانعكست بسرعة على الواقع السياسي الأوروبي والأمريكي وما زالت مطروحة بقوة لكنها تراجعت وتحطمت الكثير من مقولاتها نتيجة أحداث ومآسي الحربين العالميتين وما تبعهما من آثار.

وهنا استطاع اليمين الجديد أو اليمين المحافظ الجديد Neo-comservatives أن يجد له ساحات يتمدد من خلالها في المجتمعات الأوروبية والأمريكية ويعبر عن نفسه دينيا وسياسيا واجتماعيا، واعتبر بعض المؤرخين أن انطلاقة اليمين المحافظ الجديد في الولايات المتحدة تعود إلى السيناتور جوزيف مكارثي الذي كان وراء الحملة ضد الشيوعيين في أمريكا، فقد أصبح لليمين منذ منتصف السبعينيات مؤسسات ومراكز ومعاهد وهيئات بحثية تنظر لهذا الاتجاه وتدعو لمبادئه.

على أن أهم ما يعنينا من هذا اليمين المسيحي الجديد المتشدد Neo- Christian right خاصة في علاقة الظاهرة والمعلنة بالكيان الإسرائيلي.

*****اليمين المسيحي المتشدد:**

لم تتوالى على المجتمع الأمريكي عبر تاريخه- القصير نسبيا- مدارس وتيارات فلسفية بحيث ينتقل من فلسفة لأخرى كما حدث في أوروبا أو في كثير من بلدان العالم وذلك ربما يعود إلى ظروف النشأة والتطور الذي واكب ظهور الولايات المتحدة، أو لأن أغلب المهاجرين الأوروبيين قد ترك وراءه فلسفات- اعتبرها عقيمة- واتجه إلى واقع الحياة العملية في ذلك العالم الجديد ومن ثم برزت الفلسفة البراجماتية كملمح أساسي للشخصية الأمريكية.

لكن الواضح أن هؤلاء المهاجرين لم يتركوا وراءهم انتماءاتهم الدينية وقيمهم الإيمانية بل استمرت في تغذية الوجدان الأمريكي حتى وقتنا الراهن على الرغم من قوة التيارات الليبرالية التحررية وسيطرتها على كثير من مناحي الحياة الأمريكية، فمن السهل على الإنسان أن يغير أو يبدل أو يتخلى عن فلسفته- نظرته للحياة- لكنه من الصعب عليه أن يدير ظهره كليا لسلطة الدين والعقيدة.

وهذا ما أكده دي توكفيل في كتابه الديمقراطية في أمريكا وهو أحد الكتاب الفرنسيين الذين زاروا أمريكا وكتب مجمل ملاحظاته عنها عام (1840م) في هذا الكتاب حيث يقول: (يجب ألا يغرب عنا أبدا أن الدين هو الأصل في قيام المجتمعات الأمريكية الإنجليزية.. فالدين متصل في الولايات المتحدة بعادات الأمة وبجميع عواطف الوطنية مما يجعل له قوة خاصة.. فلا غرو أن احتفظ الدين المسيحي بسيطرة عظيمة على عقول الشعب الأمريكي).

وقد حاول دي توكفيل أن يبحث عن الأسباب والعوامل التي ينبغي أن نغزو إليها صيانة المؤسسات الأمريكية حيث بدا له أن الدين من أبرز تلك الأسباب ولهذا يبدي الأمريكيون في أمورهم العملية أنهم يشعرون بضرورة صبغ الجماعات الديمقراطية بصبغة أخلاقية مستمدة من الدين.

وقد تنامى تأثير وبروز الأبعاد الدينية والأخلاقية والحضارية في الخطاب السياسي الأمريكي ووصل إلى قمته في منتصف السبعينات وربما تكون هناك عوامل قد خلقت المناخ الملائم لبروز هذه الأبعاد ومنها صدمة حرب فيتنام على المجتمع الأمريكي وكذلك فضيحة ووتر جيت السياسية في عهد الرئيس نيكسون.

وليس معنى ذلك أو الولايات المتحدة لم تتبنى هذه الأيديولوجيات قبل هذه الفترة بل إنها كانت موجودة كما طرحنا في شكلها الديني لكنها كانت تظهر بدرجات متفاوتة من خلال مواقف يتبناها رؤساء أمريكيين كما سبق وأوضحنا في الفصل السابق.

فقضية العودة إلى القيم الأمريكية كانت واحدة من الشعارات والأفكار الأيديولوجية التي تبناها الكثير من الساسة فقد استخدمها جيمي كارتر (1977م) بل وأصبح المنظرون لهذه الأفكار والمنادون بها في قمة الهرم السياسي، فقد نشر زبجنيو برجنسكي دراسة في مجلة الشؤون الخارجية التي تصدر في أمريكا بعنوان (نقطة محورية للسياسة الخارجية الأمريكية) وطرح فيها هذه الأفكار التي كانت سببا لانتباه كارتر له حيث عينه مستشارا للأمن القومي بعد فوزه بالرئاسة.

وفعل رونالد ريجان نفس الشيء في حملته الانتخابية في عام (1980م) عندما تبنى شعار (الولادة مرة أخرى كمسيحيين The Born Again Christians) ولعلنا نلاحظ هنا أن الارتماء في أحضان مقولات الدين والتيار اليميني اشترك فيه كارتر الذي كان ينتمي للحزب الديمقراطي وريجان الذي كان جمهوريا فقد ذابت كل الاعتبارات السياسية أمام ذلك المد الديني الذي بدأ يتصاعد.

فالتيار الأصولي الديني- خاصة البروتستانتي- كان يتحرك باستمرار ويتداخل بالسياسة الأمريكية على نحو ملفت، بل واستطاع أن يؤسس له وجودا قويا من خلال منظمات ومؤسسات يتحرك من خلالها، مثل منظمة (التحالف المسيحي) ومنظمة (شبكة الإذاعة المسيحية) ومنظمة (المائدة المستديرة الدينية).

ففي سبعينات القرن الماضي ظهرت واحدة من هذه المنظمات تكونت من تحالف أصولي من البروتستانت أطلق عليه اسم (التحالف المسيحي) أو (اليمين الديني الجديد) ويعتبر (بات الفلسطينيين بل وحتى الكاثوليك من المسيحيين، وقد قام بترسون بدور واضح في إعداد مشروع (قانون محاسبة سوريا) الذي رفع إلى الكونجرس الأمريكي.

وعدد أتباع هذه المنظمة قدر بحوالي مليون ونصف ناشط في عام (1994م) وبلغ عدد الأشخاص المقيدين على قوائم مراسلاتها ثلاثين مليون شخصا، وقد بلغ من سطوة هذه المنظمة وذلك التحالف أن أشار العديدون إلى أن أي مرشح جمهوري لن يتمكن من الفوز في الانتخابات بدون مساندة هذه المنظمة!! وهذا ما حدث فعلا حيث كان التحالف المسيحي اليميني من أهم الكتل الانتخابية التي وقفت إلى جانب جورج بوش الأب في انتخابات عام (1992م) وساعدت على تحكم الحزب الجمهوري في الكونجرس عام (1994م) بأغلبية واضحة.

وربما تكون أحداث (11سبتمبر) قد أعطيت لهذا التيار اليميني المسيحي الأصولي عدة مبررات للعمل وبشكل علني وعلى مختلف الأصعدة وجعلها تهتم بأمور مشتركة أهمها: الدعم المطلق لإسرائيل، والعداء السافر للعرب والمسلمين، بل الهجوم على الإسلام نفسه.

ولا يجب أن ننسى هنا ما قاله القس الأصولي الإنجيلي المتشدد جيري فالويل أحد كهنة كنيسة توماس رود المعمدانية بفرجينيا والذي يوصف بأنه زعيم الأغلبية الأخلاقية ويمثل في الوقت ذاته ستة عشر مليون إنجيلي من الطائفة المعمدانية، وله جامعة خاصة أصولية وبرنامج تليفزيوني، حيث حمل في أكتوبر (2002م) على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه إرهابي- تنزه الرسول الكريم عما يقولون- وانتقد العالم الإسلامي واصفا إياه بتبني الإرهاب.

وهذا ما طرحه أيضا بات بترسون مؤسس التحالف المسيحي الذي أشرنا إليه حيث تحدث عن أن محمدا صلى الله عليه وسلم متعصب بشكل مطلق واتهم الديانة الإسلامية بالنزعة التوسعية.

صحيح أن هذه الحملات قد أوجدت صدى واسعاً في الأوساط العربية والإسلامية لكنها في الوقت ذاته قوبلت بصمت مطبق من الإدارة الأمريكية ومن البيت الأبيض مما أثار دهشة بعض الصحف الأمريكية، كما رأينا في صحيفة (واشنطن بوست) بتاريخ (7 أكتوبر 2002م) التي ذكرت: (إن خطورة وأهمية تعليقات فالويل وغيره أنها تأتي من قيادات من اليمين الديني في أمريكا وهي حركة وثيقة الصلة بالرئيس الذي يتحدث لغتهم).

ولعلنا لاحظنا أن معظم هذه التنظيمات التي تتبنى الأصولية اليمينية المتشددة تعود إلى البروتستانتية Protestantism والتي تعتبر الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد لكل حقيقة وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تفرض شيئا يعارض الكتاب، وجوهر البروتستانتية هي عقيدة الخلاص بالإيمان، فالإنسان الملطخ بالخطيئة لا يخلص إلا بالإيمان بالمسيح.

والبروتستانتية بدورها تتفرع إلى عدة طوائف مثل طائفة الإنجيليين المعمدانيين والدهريين والمتجددين والسبتيين وشهود يهوه والبوريتانيين والميثوديون الذين انفصلوا عن الكنيسة الأنجليكانية عام (1791م).. إلى آخر هذه الطوائف التي من أهمها وأخطرها الطائفة الإنجيلية أو ما تسمى المذهب الإنجليكاني Anglicanesm.. وينبغي أن نشير إلى أن المسيحيين الإنجيليين- الذين ينتمي إليهم بوش الابن- يقدر

عددهم بنحو خمسة وأربعين مليونا في الولايات المتحدة وقد كانوا عونا كبيرا لبوش في حملته الانتخابية قبل الرئاسة.

والملاحظ أن هذه الطوائف البرتستانتية والتي وصل عددها الإجمالي في منتصف الثمانينات إلى أكثر من خمسة وسبعين مليون نسمة، لكن هذه الطوائف تجتمع كلها على اعتبار التوراة المصدر الوحيد والموثوق به في معرفة تاريخ العالم وحاضره ومستقبله، وبوش الابن نفسه لا يخفي في مواقف مختلفة مدى إعجابه بالتوراة وتوقيره لها.

أماالمرجعية الفكرية التي تستند إليها معظم هذه الطوائف فهي إيمانها بالكتاب المقدس إيمانا حرفيا ويؤمنون كذلك بضرورة تجمع اليهود في الأرض المقدس وأن هناك معركة اسمها هرمجدون التي أشرنا إليها سابقا والتي ستكون نزالا بين قوى الخير وقوى الشر وسينتصر فيها المسيحيون الأتقياء، ولهذا تظهر الإحصائيات أن (59%) من الشعب الأمريكي يؤمن بأن معركة هرمجدون لا مجال للشك فيها وأنهم يتوقعون حدوثها حسبما أشارت مجلة (تايم) وقناة (سي إن إن).

ولهذا تسعى هذه الطوائف للتأثير على الإدارة الأمريكية لحثها باستمرار على تحقيق الوعد الإلهي بالمحافظة على استقرار الشعب اليهودي المختار في أرض الميعاد.. ولهذا اعتبرهم البعض قوة مؤيدة لإسرائيل أكثر من قوة اللوبي اليهودي نفسه لثقلهم الانتخابي ولنفوذهم في المجتمع الأمريكي بل إن هناك توقعات لزيادة نفوذهم في المراحل المقبلة كما أكد على ذلك بيج روبرتسون القس الإنجيلي المعروف بتأييده لإسرائيل حيث يتوقع أن تكون الصهيونية المسيحية أقوى حركة سياسية في أمريكا خلال عشر سنوات.

إنهم كما يقول برنارد رايش أحد الذين اشتغلوا بقضية العلاقة بين إسرائيل وأمريكا حيث أشار إلى ظاهرة اليمين المسيحي قائلا: (هذا عنصر حقيقي بالتأكيد ومستمر في تقوية مراكزه بسبب نمو هذه المجموعة) بل إن قوتهم وصلت إلى درجة تسليحهم بشكل لافت، حيث أشارت البعض أن ما لا يقل عن عشرين مليون مسيحي يميني متطرف يمتلك أسلحة مختلفة!!

ولهذا فإن اليهود داخل الولايات المتحدة وداخل الكيان الإسرائيلي يقدرون هذا الاتجاه لدى اليمين المسيحي، وقد أكد على ذلك بيني إيلون وزير السياحة الإسرائيلي الحالي وأحد ممثلي اليمين الإسرائيلي وهو في الوقت ذاته أحد قادة حزب الاتحاد الوطني اليميني المتطرف الذي يشغل ثمانية مقاعد من أصل مائة وعشرين مقعدا في الكنيست الإسرائيلي وكان قد قام بجولة في نيويورك في شهر يونيو (2003م) في إطار حملة على ما يسمى (الإرهاب).

حاول إيلون من ناحيته أن يفسر إعجاب اليمين المسيحي بإسرائيل قائلا: (إن إسرائيل جزء لا يتجزأ من مفهومهم الديني) ويشير إلى نقطة الالتقاء بينهم على اعتبار أن ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم واستشهد بالتوراة والعهد القديم يقول:(على سبيل المثال يقولون كما جاء في العهد القديم يهودا والسامرة وليس الضفة الغربية وليس نابلس..).

وربما لا يقصد إيلون هذا الاتفاق الحرفي على مصطلحات جغرافية بقدر ما يقصد الاتفاق بين اليمين المسيحي وبين اليهود في أنهم يتكلمون لغة واحدة مشتركة لغة التوراة بمفاهيمها ورؤاها وأساطيرها والتي من أهمها أسطورة إسرائيل أرض الميعاد.

***علاقة اليمين المسيحي بإسرائيل:

وإذا اتفقت اللغة والمرجعية الدينية فلا بد أن تتفق الوسائل والأهداف وهذا ما حدث في ظل الشراكة الدينية بين اليمين الإسرائيلي في الولايات المتحدة وبين الكيان الإسرائيلي حيث لم يخف هؤلاء اليمينيون ولاءهم وانتماءهم لهذا الكيان وصرحوا به في الظاهر بحيث أصبح ذلك ملمحا لوجودهم لاشك فيه.

ولهذا لا نستطيع دائما أن نرجع هذا التأييد السياسي والدعم العسكري والاقتصاد الأمريكي لإسرائيل بل والالتزام الأخلاقي تجاهها إلى مجرد دور يقوم به اللوبي اليهودي الذي سنتكلم عنه لاحقا، فعلى الرغم من أهميته وقوة نفوذه إلا أن الجالية اليهودية لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تضطلع وحدها بهذا الدور ولهذا سعى اليهود وإسرائيل دائما من أجل إيجاد تحالفات قوية مع جماعات أخرى غير يهودية مسيحية متشددة تشاركها الرؤى وتساعدها في تحقيق الأهداف.

وقد خلصنا إلى أن ما يجمع هؤلاء جميعا في نسيج واحد هو البعد الديني المشترك، يقول برنارد رايش في كتابه (الولايات المتحدة وإسرائيل): (الواقع أن التراث الديني في الولايات المتحدة وخاصة لدى المسيحيين يساعد كثيرا على كسب التعاطف العام مع أرض إسرائيل باعتبارهم الذين تحققت على أيديهم نبوءة التوراة).

ولكي نصل إلى مزيد من القناعة بحقيقة وجود هذا الاتجاه وتأصله في المجتمع الأمريكي- اليميني- تحديدا علينا أن نرصد بعض ما قاله رواد الكنائس والساسة وغيرهم ممن أعلنوا ظاهرا الولاء للكيان الإسرائيلي، وقد مر بنا سابقا تفصيل البعد الديني التوراتي في موقف الكثير من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية على مدى عقود وصولا إلى جورج بوش الابن.

وقد تبنى ذلك الموقف الكثير ومنهم زبيجنيو بريجنسكي الذي كان مستشارا للأمن القومي في لقاء له مع جريدة (نيويورك تايمز) في (31ديسمبر 1978م) يقول: (إن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل علاقة عضوية وأخلاقية أساسا وأنا أعتقد أن هذا أرقى من أية علاقات رسمية أو معاهدات مبرمة.. هناك إحساس أخلاقي ثابت تجاه إسرائيل).

وهناك سياسي أمريكي آخر كان أكثر تحديدا في توصيف العلاقة بينه وبين إسرائيل وهو السيناتور روجر جبسون الذي قال في مؤتمر إيباك سنة (1981م) (إن من أسباب تأييده الحيوي الثابت لإسرائيل هو دينه المسيحي وأن المسيحيين وخاصة المسيحيين الأنجيليين هم من أفضل أصدقاء إسرائيل منذ ولادتها الجديدة عام (1984م)).

وهذا ما أدركه رجال الطوائف اليمينية المسيحية من أن السياسة الأمريكية تحترم اليمين المسيحي ومن يمثل هذا اليمين يحترمون بدورهم ولاءهم لإسرائيل، فقد قال الأسقف ريتشارد لاند من المؤتمر المعمداني الجنوبي (إن البيت الأبيض ومديره السياسي كارل رولف يعرفون مدى أهمية الدعم الأنجليكاني وكونه حاسما لهم ولحزبهم وهم يعرفون مدى قوة دعم الأنجليكانيين لإسرائيل..).

بل الأغرب أن هذا الأسقف قد أعلى من مدى ارتباط اليمينيين أو تحديدا الطائفة الأنجليكية بالكيان الإسرائيلي معتبرا أن ذلك أهم من الولايات المتحدة ذاتها يقول: (إننا بحاجة إلى مباركة إسرائيل.. وذلك لأن لإسرائيل حليفا أكبر بكثير من الولايات المتحدة وهو اللـه القوي العزيز)!!

ويشاركه الرأي في ذلك جيري فالويل الذي تحدثنا عنه حيث قال في مطلع الثمانينات (إن من يؤمن بالكتاب المقدس يجد بان المسيحية ودولة إسرائيل الجديدة مرتبطتان دون انفصام..). والطريف أن جيري فالويل كان صديقا شخصيا لمناحيم بيجن واسحق شامير وقد وصفته مجلة (الإيكونوميست) اللندنية في الثمانينات بأنه آية اللـه للبعث المسيحي وقد أسس أيضا في ذلك الوقت جماعة العمل السياسي الأصولية الدينية.

وكذلك نرى نفس هذا العشق الديني لإسرائيل عند القس جيمي سواجارت صاحب الفضائح المشهورة الذي قال ذات مرة (إنني أشعر بأن أمريكا مربوطة بالحبل السري الروحي بإسرائيل.. وأنا أصلي إلى اللـه بأننا سنقف دائما وراء إسرائيل).

وفي الحقيقة فإن هذا التأييد والولاء القوي من اليمين المسيحي لإسرائيل لم يكتف بالقول أو بالشعارات أو الآراء النظرية بل اقترن هذا الإعجاب بخطط وبرامج تنفيذية كان من أهمها تأسيس منظمات وجمعيات تقوم بأكثر من دور منها عمليات لجمع التبرعات واستئجار طائرات للراغبين في زيارة إسرائيل وفوق ذلك ممارسة الضغط إن لزم الأمر على القرار السياسي الأمريكي لدعم الكيان الإسرائيلي.

من هذه الجمعيات (جمعية فلسطين الأمريكية المسيحية) وجماعة (حق الدين) التي تضم ما يقارب خمسين مليون شخصا، وهناك تنظيمات تتمركز داخل الولايات المتحدة وإسرائيل وتحاول إقامة صلات بين عدد من الأمريكيين المؤيدين لإسرائيل والحركة الصهيونية وبين مجموعات يهودية متطرفة، وقد ظهر في أوائل الثمانينات عدد من هذه التنظيمات مثل جماعة (مؤمنو الهيكل) وجماعة (مؤسسة معبد القدس).

وعلينا أن نقترب من بعض هذه الجماعات لنرى كيف تم تذويب هؤلاء في مؤسسة واحدة تعمل وفق أهداف محددة، فجماعة (مؤسسة معبد القدس) ظهرت عام

(1982م) وتأليف من خمسة أمريكيين إنجيليين وإسرائيلي يدعى (ستانلي جولد فوت) وكان صاحب جريدة تصدر في السبعينيات تسمى يسرائيل تايمز والمثير للسخرية أن ستانلي كان عضوا في عصابة شتيرن الإرهابية عند قيام الكيان الإسرائيلي.

وتقوم مؤسسة (معبد القدس) بجمع أموال مختلفة لتعزيز صلات الأمريكيين الإنجيليين بالمتطرفين اليهود في إسرائيل، إضافة على أن لها اهتماما خاصا بقضية بناء الهيكل فهم يؤمنون بأن المسيح لن يعود حتى يبنى الهيكل.

فالمسيح لا يمكن أن يعود إلى الأرض لإعلان نهاية العالم طالما أن الشعب اليهودي لم يبن الهيكل الثاني في القدس بعد أن دمر البابليون الهيكل الأول سنة (587ق.م) ودمر الرومان الهيكل الثاني في سنة (70بعد الميلاد).

وكان من ضمن أعضاء هذه المؤسسة لامبيرت دولفين الفيزيائي الأمريكي الذي كان يرأس مركز ستانفورد في الثمانينات وهو من أهم المراكز البحثية في العالم حتى أن ميزانيته وصلت في هذه الفترة إلى حوالي مائتي مليون دولار، إضافة إلى أن المركز يتعامل مع حكومة الولايات المتحدة وعدد من المؤسسات الأمريكية الكبرى.

وقد لعب المركز نفسه من خلال رئيسه ومن خلال أبحاثه دورا في تكريس المفاهيم التي يؤمن بها أتباع مؤسسة (معبد القدس) حتى أن رئيسه لامبيرت دوليفين أكد مرارا على أن الكنيسة المسيحية ولدت في ساحة المعبد.

وفي الكيان الإسرائيلي يوجد العديد من الجمعيات والمؤسسات التي تلتقي وتكامل مع مثيلاتها في الولايات المتحدة خاصة في موضع الهيكل ومن هذه الجمعيات (جماعة غوش أمونيم) و(منظمة بيتار) و(حركة كاخ) وجمعية صندوق جبل الهيكل وحركة الموالين لساحة المعبد وغيرها الكثير.

وهكذا نجد التماهي والذوبان بين ما هو ديني وما هو سياسي في العلاقة بين اليمين المسيحي وبين الكيان الإسرائيلي حيث يمكننا أن نؤكد أن تلك العلاقة قائمة على أسس بنيوية ثقافية دينية حركت أفئدة قطاع كبير من المجتمع الأمريكي تجاه الكيان منذ تأسيسه بل حتى قبل أن يؤسس في عام (1948م).

وقد أدرك الطرفان منذ وقت مبكر مدى وعمق هذه العلاقة واستطاعوا أن يلملموا تلك العواطف الدينية ويترجموها إلى واقع سياسي واجتماعي وعسكري.. ولهذا اتجهت الحركة الصهيونية- في مرحلة ما قبل تأسيس الكيان- إلى استثمار هذه المعطيات الدينية داخل المجتمع الأمريكي إضافة على إحساس الصهيونية بمدة قوة أمريكا خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية.

وليس أدل على ذلك من انعقاد مؤتمر بالتيمور في نيويورك عام (1942م) الذي وحد صفوف القوى الصهيونية تحت المظلة الأمريكية، وفي الوقت الذي انتهى انتداب بريطانيا لفلسطين كانت الحركة الصهيونية قد نقلت كل ثقلها إلى الولايات المتحدة- القوة الجديدة- لتدير من هناك مخططاتها وتنفذ طموحاتها بالعقل اليهودي والقوة الأمريكي.

وتوالت مثل هذه المؤتمرات والتجمعات التي جمعت بين الطرفين اليمين المسيحي والطرف اليهودي الصهيوني فقد عقد أول مؤتمر مسيحي صهيوني دولي في مدينة بال في سويسرا في أغسطس (1985م)، ولا ننسى أن هذه المدينة السويسرية قد اقترن اسمها ببروز الحركة الصهيونية في شكلها الحديث عام (1897م)، وعقد كذلك المؤتمر المسيحي الصهيوني الأول في الكيان الإسرائيلي عام (1988م).

وكان آخر هذه المؤتمرات ذلك الذي انعقد في واشنطن وضم أكثر التنظيمات اليهودية والمسيحية الأنجيلية في (20مايو 2003م) وقد دعا فيه المؤتمرون لضرورة مناصرة بوش الابن لإسرائيل وكتبوا شعارات عديدة كان منها (صلوا من أجل أن يحترم الرئيس بوش ميثاق اللـه مع إسرائيل).

فمثل هذه المؤتمرات والمؤسسات انطلقت من تلك المرجعية المشتركة التي جمعت الأصوليين المسيحيين واليهود في التأكيد على علاقة إسرائيل الخاصة بالله كشعب مختار وبالتالي مسؤولية أمريكا الأخلاقية والدينية في حماية هذا الشعب وفي استقرار الكيان الإسرائيلي.

وفي الحقيقة فإن ذلك التحالف الصهيوني المسيحي هو سمة أوروبية أيضا ولا يقتصر على الساحة الأمريكية، فهناك في أوروبا مثل هذه التيارات سواء في فرنسا أو

في ألمانيا التي قدر عدد المجموعات الصهيونية المسيحية في أكتوبر (2001م) بحوالي ثمانمائة مجموعة، حتى أن ممارساتها ومواقفها قد أثارت بعض أوساط المجتمع الألماني بل وطرحت بعض قضاياهم في البرلمان، لكن ربما يكون نشاط هؤلاء في الولايات المتحدة ملفتا أكثر وخاصة أنه يحظى بدعم واضح من الكثيرين.

فإذا كان الدين يقوم بهذا الدور في تحريك النظام السياسي الداخلي والخارجي على السواء في الولايات المتحدة فإن ذلك سيدفعنا للحديث عن وجود أيديولوجيا أمريكية ترسم للولايات المتحدة معالم علاقاتها بالعالم الخارجي عامة والكيان الإسرائيلي على وجه الخصوص.

وقبل أن نترك اليمين المسيحي في أمريكا ومناصرته وتأييده المطلق لإسرائيل ونتحدث عن اللوبي اليهودي وما قام به من دور هام في تهيئة المجتمع الأمريكي بكل قطاعاته لخدمة هذا الكيان، أقول علينا أن نقف عند نقطة غاية في الأهمية وهي دائما ما تطرح في الخطاب العربي الفكري والسياسي وهو اعتبار العلاقات الإسرائيلية الأمريكية قائمة على أسس استراتيجية فإلى أي مدى تصدق تلك المقولات؟!

***أمريكا وإسرائيل بين الاستراتيجي والأيديولوجي:

وفي الحقيقة فإن العالم الأيديولوجي- وتحديدا البعد الديني منه- أصبح يسيطر على الكثير من مواقف الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على الرغم من أن المجتمع الأمريكي ذاته استغرق سنوات طويلة في مقاومة الأيديولوجيا الشيوعية، ولهذا غلب الظن أن الولايات المتحدة تعادي الأيديولوجيا عموما وهذا رأي مغالط للحقائق فلا سياسية بدون أيديولوجيا.

فالسياسة الخارجية الأمريكية تأثرت بالأيديولوجية الرأسمالية أو الليبرالية وانعكس ذلك على نظرة أمريكا للعالم ومواقفه إزاءه وهذا قد يفسر- مثلا دور الولايات المتحدة في قيام حلف الناتو NATO أو دوره- حسب الرؤية الأمريكية- في الدفاع عن العالم الحر في مواجهة العالم الشيوعي المستبد.

ومن المهم الإشارة إلى أن الأيديولوجيات سواء أكانت أيديولوجيات شاملة كالشيوعية والرأسمالية أو أيديولوجيات توسعية مثل النازية والفاشية والصهيونية أو أيديولوجيات أخرى مثل الديمقراطية أو القومية.. عند من يعتبر القومية أيديولوجية.. نقول إن كل هذه الأيديولوجيا- سواء اتفقنا أو اختلفنا معها- والتي تتبناها بعض الدول والمجتمعات قد تجتمع أو تقرب السياسات الخارجية لهذه الدول لكنها في الوقت ذاته لا تكفل استمرار هذا التقارب بل إنه في معظم الأحيان قد يحدث عداء ونفور واضح وصراع بين دول تتبنى نفس الأيديولوجيات مثلما حدث مع الاتحاد السوفييتي سابقا وجمهورية الصين الشعبية.

ولهذا فهناك من يعتبر أن هذه الأيديولوجيات ما هي إلا إطارا شكليا للسياسة الدولية والعلاقات الخارجية، حيث تقوم عوامل أخرى تمنح الأيديولوجيات صبغة واقعية أكثر معلى رأسها الدين والجنس والعرق والجغرافيا.

ومن هنا نؤكد أن البعد العقائدي الديني يختلف في قوته وتأثيره عن الأفكار والنظريات الأيديولوجية مثل التي طرحها ماركس أو إنجلز أو هتلر أو موسوليني أو غيرهم من أصحاب الفلسفيات والنظريات.. وحتى في المجتمع الأمريكي على الرغم من سطوة وسيطرة الأفكار الليبرالية العلمانية على أوجه الحياة فإنها لم تزحزح سلطان الدين والعقيدة وتأثيرهما حتى على الكثير من صناع القرار الذين باتوا طوال عقود من الزمن يبررون سياساتهم الخارجية وحتى الداخلية بأنها مبنية على أسس أخلاقية.

ونحن عندما نستخدم اصطلاح الأيديولوجي فإننا نعني به البعد الديني العقائدي أكثر من أي شيء آخر لأننا نعتقد أن الدين أرقى وأسمى من الأيديولوجيات، وما ألجأنا لهذا الاصطلاح سوى شيوعه ومرونته أيضا بحيث ينطبق على العقائد الدينية والقيم الأخلاقية.

وقد رأينا من خلال رصدنا لمواقف أمريكية مختلفة اتخذها القادة السياسيون والمفكرون ورواد الكنيسة مدى استفحال البعد الأيديولوجي وتحكم في وضع الأطر التي تحدد علاقة أمريكا بالعالم الخارجي خاصة إسرائيل.

والغريب أن كثيراً من مفكرينا وسياسيينا العرب قد تغاضوا عن هذا الدور الأيديولوجي في علاقة أمريكا بإسرائيل بل واستخفوا بهذا الطرح ووجه الغرابة أن الدلائل والبراهين أكثر من أن تعد وتحصى إضافة إلى التصريح المباشر عن هذا البعد الديني في أكثر من موضع وكأننا ننفي بتجاهل ما يعلنه الآخرون بوعي.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن أكثر من رفضوا وجود عامل ديني يقف خلف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية هم أصحاب النظريات القومية الذين هونوا من تأثير الدين عموما في العلاقات السياسية الدولية، وهو أمر أتصور أنهم راجعوا فيه أنفسهم بعد تلك الأحداث المتوالية التي أثبتت أن الدين يقدم خلفية من القيم Background للفرد والجماعية وتتساوى في ذلك كل الأديان السماوية وحتى الوثنية منها، وهذه الخلفية المرجعية تشكل وتصبغ الكثير من المواقف في السياسة الدولية.

وفي الوقت الذي همش العرب فيه هذا البعد الديني الأيديولوجي انشغلوا واهتموا اهتماما غير مسبوق بالعامل الاستراتيجي واعتبروه حجر الزاوية في تفسير العلاقات الأمريكية الإسرائيلية وهنا علينا أن نرصد عدة ملاحظات من الممكن أن تسهم في تفنيد هذه الرؤية الأحادية:

1- فعلى الرغم من إيماننا بأهمية البعد الاستراتيجي القائم على المصالح والمنافع وهو ما يفسر الحركات الاستعمارية الإمبريالية طوال حقب تاريخية طويلة، لكننا لا يمكننا أن نتغاضى عن وجود بعد ديني يقف خلف ما هو استراتيجي وربما يسبقه في كثير من الأحيان، وبالنظر إلى بعض الفترات التاريخية فإننا لا يمكننا قبول التفسير الاستراتيجي فقد للحروب الصليبية على العالم الإسلامي مثلا.

2- لابد أن ندرك أن الاستراتيجي متغير يأتي ويختفي نتيجة اختلافات في رؤى الأفراد أو المؤسسات أو نتيجة صعوبات وعقبات تؤدي إلى وجود خسائر، إذ لا تستقيم الاستراتيجية مع المخاطرة والخسائر، في حين أن الأيديولوجي- خاصة الديني- أكثر ثباتا واستمرارا وتحملا للخسائر وتذليلا للصعوبات.

3- وإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية على مدى تاريخها خاصة منذ تأسيس الكيان الإسرائيلي سنجد أنها تكبدت خسائر كبيرة من أجل أمن وحماية ودعم إسرائيل،

فمليارات الدولارات التي خرجت من دافعي الضرائب الأمريكية في شكل مساعدات اقتصادية ومنح وقروض ومساعدات عسكرية إضافة إلى مواقف سياسية تبنتها الولايات المتحدة ألحقت الضرر بها على مستويات مختلفة مثلما حدث أثناء حرب (1973م) ومقاطعة العرب عن تزويد الولايات المتحدة بالنفط وما نتج عن ذلك من خسائر تكبدها الاقتصاد الأمريكي، ومثلما يحدث الآن من شعور عدائي متنامي تجاه الولايات المتحدة بين شعوب العالم العربي والإسلامي نتيجة مواقفها المساندة لإسرائيل وحربها الأخيرة على العراق، صحيح أن الولايات المتحدة لم تخسر علاقاتها كليا بالعالم العربي والإسلامي نتيجة تحالفها مع إسرائيل لكن ذلك لا يعود إلى الأمريكيين بل إلى العرب والمسلمين أنفسهم.

4- حتى على المستوى العسكري لم يحدث في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أن شارك الجيش الإسرائيلي في معارك وحروب أو صراعات في أي بقعة من العالم خاضتها الولايات المتحدة، حتى في حرب العراق الأخيرة لم تكن المشاركة العسكرية الإسرائيلية مباشرة وقوية وربما أخذت التنسيق والتعاون الذي كان الهدف منه في المقام الأول هو توفير الحماية والأمن لإسرائيل واجتهدت القيادة الأمريكية أن لا يتكرر ما حدث في حرب الخليج الثانية عام (1991م) عندما وجهت العراق بعض صواريخها إلى تل أبيب، فإسرائيل بلا أدنى شك قد خرجت مستفيدة من هذه الحرب على كل المستويات فلم يرق من أبنائها نقطة دم ولم تتكبد خسائر اقتصادية تذكر، وما حدث بدون مبالغة أن أمريكا دخلت الحرب لإسرائيل.. إضافة إلى أن الوجود العسكري الأمريكي المنتشر في العالم من خلال القواعد والأساطيل لا يحتاج إلى دعم إسرائيلي يحقق ما يمكن أن نسميه استراتيجي.. فهل هناك فائدة عسكرية ملموسة حققتها إسرائيل للولايات المتحدة؟!

5- ولابد ألا ننسى مقولة (الأمن الأمريكي القومي) أو (المصالح الأمريكية) إلى غيرها من مقولات استراتيجية جرى التأكيد عليها في إطار علاقات الولايات المتحدة بالعالم وخاصة إسرائيل فهذه المقولات لم تتعرض لمحكات أو اختبارات كبيرة داخل العالم العربي والإسلامي، وحدث ذلك مرات معدودة بعضها قوي والآخر لم يكن ذا تأثير

يذكر، فقرار مقاطعة الولايات المتحدة نفطيا من بعض الدول العربية في فترة حرب (1973م)، أو بعض المواقف الشعبية المطالبة بمقاطعة المنتجات الأمريكية وصولا إلى أحداث (11سبتمبر) وعلاقة العالم الإسلامي بشكل أو بآخر.. هذه هي ربما المحكات القليلة التي تعرض له الأمن أو المصالح القومية الأمريكية وعرضته لبعض المخاطر.

6- وعلى الرغم من مقولة أن إسرائيل حليف وصديق للولايات المتحدة وتلك حقيقة لا ننكرها وقد أقر بها الجميع وتجري على ألسنة المفكرين والساسة وحتى التيار اليميني المسيحي، إلا أن تلك الصداقة وذلك التحالف مصبوغ بصبغة دينية تغطي على تراجعات الاستراتيجية الأمريكية ومصالحها القومية، بل يمكن القول إن هذه الصبغة الدينية هي التي حافظت على استمرار العلاقة رغم الخسائر الفادحة ورغم ما يشوب هذه العلاقة أحيانا من أجواء ضبابية مثل شبكات التجسس الإسرائيلية التي يكشف عنها بين الحين والآخر في الولايات المتحدة!!

وهنا يبرز دور الجالية اليهودية أو اللوبي الصهيوني في محاولة توطيد العلاقة الإسرائيلية الأمريكية وجعلها تسمو على أي مظاهر استراتيجية أو نفعية.

*****اللوبي اليهودي والعمل من أجل الوطن الأم (إسرائيل):**

وقد آثرنا أن نتحدث عن قوة وظهور اليمين المسيحي والتطرق إلى مرجعيته الدينية التي تلتقي مع أسطورة (أرض الميعاد) وذلك قبل حديثنا عن دور اللوبي اليهودي حتى لا نقع في شرك التسطيح والنظرة الأحادية للقضية التي نهتم بها في دراستنا.

فالاعتقاد السائد أن اللوبي الصهيوني هو المحرك الوحيد لتفاصيل الصورة وخاصة ما يتعلق فيها بإسرائيل أو العرب وذلك ليس تقليلا أبدا من حجم الدور الخطير الذي قام به ذلك اللوبي بل إننا أردنا أن نؤكد على أن أي لوبي أو جماعة ضغط لا تعمل في فراغ بل لابد أن يكون لها مرتكزات اجتماعية وسياسية واقتصادية تجعل تتحرك بقوة إلى تحقيق مصالحا.

ومن الأمور التي ساعدت كثيرا اللوبي اليهودي في أمريكا هو توافر هذه المرتكزات التي ذكرناها فاليهود في أمريكا عنصر- اجتماعي مرموق تعاطوا مع السياسة الأمريكية بكل قوة وامتلكوا آليات اقتصادية هائلة ووسائل إعلام مختلفة إضافة إلى العامل الديني الذي أشرنا إليه مرارا وتكرارا.. وكل ذلك جعل هذا اللوبي يملك نفوذا ويمتلك خصوصية وربما لم يحدث ذلك بهذا الشكل عبر تاريخ اليهود الطويل في الشتات.

فالجالية اليهودية في أمريكا أكثر تنظيما ودقة واتحادا في العمل من اللوبيات الأخرى وخاصة (اللوبي العربي) الذي لا يعبر في الكثير من الأحيان عن هوية واحدة أو مبادئ متفق عليها أو أهداف مشتركة يتم السعي إلى تحقيقها، والأكثر من ذلك وأهم أن الجالية اليهودية أكثر تفانيا وإخلاصا للعمل مهما كانت اختلافاتهم فإنهم سرعان ما يعودون إلى هدف مشترك وهو خدمة مصالح إسرائيل.

وهذا التفاني في العمل من أجل إسرائيل محل تقدير من القادة والسياسيين في الكيان الإسرائيلي ذاته وقد أكد على ذلك موشى شاريت الذي كان وزيرا لخارجية الكيان وذلك في خطاب له عام (1951م) حيث قال: (في رأيي أن وجود خمسة ملايين يهودي في أمريكا والمسؤولية الخاصة التي تحسها إسرائيل نحوهم من ناحية وتعلقهم الشديد بإسرائيل من ناحية أخرى، يتيح ضمانا بغير حدود لاستمرار تعاطف الولايات المتحدة وصداقتها معنا، ومهما نشب من خلال لسبب أو آخر حول قرار سياسي أن منهج سياسي بين الحكومتين فلن تحدث أبدا قطيعة.

وبعد أن أفاض شاريت في وصف هذه العلاقة الحميمة بين الكيان وأمريكا عاد وأكد أن الجالية اليهودية في أمريكا هي التي تمثل جسر- التواصل بين الطرفين وقال (لأن إسرائيل لن تدير ظهرها أبدا لليهود الأمريكيين ولأنهم كما نعتقد لن يديروا ظهرهم لإسرائيل).

وهذا ما أكده أيضا مناحيم بيجن في مقال نشرته (النيويورك تايمز) في (21ديسمبر 1981م) حيث وصف اليهود الأمريكيين بأنهم سيظلون دائما واقفين في صفنا فهذه أرض أجدادهم الأولين ومن حقهم ومن واجبهم أيضا مساندتها.

وهذا الإحساس المتعاظم بقوة ونفوذ اللوبي اليهودي لم يأت من فراغ، ولكي نقترب من الصورة أكثر علينا أن نتعامل مع لغة الأرقام التي تحمل دلالات كثيرة يمكن تفسيرها بشكل أو بآخر، فإذا نظرنا إلى الناحية العددية للجالية اليهودية مقارنة بالتعداد العام للسكان في الولايات المتحدة سنجدها تمثل نسبة بسيطة.

فالإحصائيات تشير إلى أن عدد سكان الولايات المتحدة يقدر بحوالي مائتي وثمانين مليون نسمة وتتراوح نسبة اليهود من خمسة إلى ستة ملايين يهودي وهم بذلك لا يشكلون سوى (3%) من سكان الولايات المتحدة، صحيح أنها تعد أكبر جالية يهودية في العالم قبل فرنسا وصحيح أيضا أن هذه الجالية تواجه إشكالية سكانية (ديموجرافية) نتيجة القوانين الصارمة في التزاوج ونتيجة لقلة عدد المواليد.

لكن علينا أن لا تأخذنا هذه القراءات لتلك المعطيات بعيدا عن الصورة الحقيقية والتي سنرسمها من خلال لغة الأرقام ذاتها، حيث تقول إن نصف عدد أصحاب المليارات من اليهود وأنهم يمتلكون أكثر من مائتي جريدة ومجلة منها ما هو باللغة العبرية تصدر داخل الولايات المتحدة.. ومنها أن (11%) من النخبة الأمريكية من اليهود حيث يشكلون (25%) من الصحافيين والناشرين وأكثر من (17%) من قادة المنظمات العامة والخاصة وأكثر من (15%) من الموظفين الحكوميين ذوي المناصب الرفيعة.

وقد أضاف كتاب (اليهود والمشهد الأمريكي الجديد) الذي صدر عام (1995م) للكاتبين اليهوديين سيمور ليبست وإيرل راب أرقاما أخرى جاء فيها أن اليهود شكلوا على مدة العقود الثلاثة الماضية حوالي (50%) من أبرز مائة مفكر في الولايات المتحدة وحوالي (20%) من أساتذة الجامعات العريقة وحوالي (40%) من الشركاء في المؤسسات القانونية البارزة في نيويورك وواشنطن وحوالي (59%) من مخرجين وكتاب ومنتجين لأفضل خمسين فيلما سينمائيا في الفترة الواقعة بين عام (1965م) إلى عام (1984م).

فعلى كل المستويات الهامة ثمة جهد يهودي بارز في استثمارها والاستفادة منها، في دنيا المال والسياسة وهما اتجاهان استطاعا اليهود أن يمزجوا بينهما بكل

براعة ونشير هنا إلى أن (20%) إلى (50%) من الأموال التي تتدفق على الحزب الديمقراطي تأتي من المنظمات اليهودية ومن الناخبين اليهود.

أما في دنيا الإعلام والمعلومات والترفيه يكفي أن نقول إن الرؤساء التنفيذيين لأهم ثلاث شبكات تليفزيونية من اليهود مثل شركة (نيوز كوربوريشن) التي يملكها روبرت مردوخ وهو إمبراطور الإعلام اليهودي واسع الثراء، وتسيطر المصالح اليهودية على كثير من شركات الإعلام العملاقة مثل (ديزني) و(إيه أو ال/ تايم وارنر) و(سيجرام) و(فياكوم) ورؤساء أضخم إستديوهات سينمائية وشركات سينمائية مثل (متروجولدين ماير، وفوكس وبارامونت، وكولمبيا ويونيفرسال ويونيتد أرتست..) ومالكي أكبر سلسلة صحف ومنها (نيويورك تايمز) و(واشنطن بوست) كلهم يهود ولهذا تتحدث هذه الصحف في كل الأحوال دفاعا عن المصالح الإسرائيلية.

وكل هذه الاختراقات تأخذ شكلا دقيقا ومنظما حيث يقف وراء هذه الجهود منظمات ومؤسسات يهودية في الولايات المتحدة تعمل في مجالات مختلفة وصولا إلى الكونجرس والبيت الأبيض نفسه وتدير شبكات إعلامية وشركات مالية تشترك كلها في الولاء والدعم لإسرائيل، ففي منتصف الثمانينات كان هناك حوالي مائتي منظمة يهودية تدور في هذا الفلك.

***بعض مؤسسات اللوبي اليهودي:**

وسنكتفي هنا بالحديث عن أبرز هذه التنظيمات اليهودية ومنها مثلا (جمعية النداء اليهودي) التي تأسست عام (1939م) قبل ظهور الكيان الإسرائيلي وقامت بدور واضح في توفير المساعدات لهذا الكيان منذ تأسيسه، وهناك مؤتمر المنظمات اليهودية الكبرى وهو من أهم المؤسسات اليهودية والذي يقوم بدور جهاز التنسيق فيما بين المنظمات والجمعيات اليهودية وقد تأسس عام (1955م) ويسعى المؤتمر إلى التأثير على السلطة التنفيذية وكذلك التأثير على المجتمع الأمريكي بشرح سياسة إسرائيل في وسائل الإعلام المختلفة لكسب التأييد لهذا الكيان.. أما أقوى المنظمات اليهودية على الإطلاق فهي لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية والتي تعرف اختصارا

(إيباك Aipac) وفي الحقيقة فإنها في مقدمة هذه المنظمات بل تعد إحدى أقوى جماعات المصالح والأكثر نفوذا في أمريكا، وقد أسست عام (1951م) بعد أن حصلت على ترخيص رسمي من الحكومة الأمريكية لمزاولة عملها، وتضم أكثر من أربعين منظمة يهودية أمريكية رئيسية وتمثل الملايين من الأعضاء والمتطوعين.

وإذا كان مؤتمر المنظمات اليهودية الكبرى الذي أشرنا إليه يهتم بالتأثير على السلطة التنفيذية بما فيها شخص الرئيس والوزراء والمستشارين.. فإن اهتمام (إيباك) ينصب على التأثير على السلطة التشريعية بما فيها مجلس الشيوخ ومجلس النواب والعملية الانتخابية ذاتها ولا يعني ذلك عدم اهتمامها بالسلطة التنفيذية بل إن نفوذها كبير لدى السلطتين معا، والهدف من ذلك واضح بلا شك وهو العمل على تحسين العلاقات بين إسرائيل وأمريكا.

أما أهم ما تقوم به (إيباك) من وسائل وأساليب تحقق بها أهدافها فمنها:

1- تقوم بتقديم معلومات لأعضاء الكونجرس عن إسرائيل والشرق الأوسط وبطبيعة الحال معظم هذه المعلومات مغلوطة أو مضللة أو منتقاة لإعطاء الصورة المناسبة عن إسرائيل وتشويه صورة العرب والمسلمين.

2- تراقب (إيباك) بدقة مواقف أعضاء الكوجرس إزاء قضايا الشرق الأوسط لضمان تأييدهم لإسرائيل وتتخذ على الفور خطوات سريعة لمعالجة هذه المواقف السلبية والإيجابية.

3- ولهذا فهي تتخذ منطق العصا والجزرة من خلال تقديمها الدعم المادي والمكافآت لأعضاء يقفون في صفها ويؤيدون توجهاتها، في الوقت الذي تضر فيه من يقف ضدها بالتهديد وبالإيذاء والتشهير.. إلى آخر هذا السيناريو الذي برع فيه اليهود إنها سياسة الترهيب والترغيب الدعم أو التدمير.

4- الدعم المادي للحملات الانتخابية الباهظة التكاليف خاصة للحزب الديمقراطي وقد ذكرنا أن ما بين (20%) إلى (50%) من أموال الحزب الديمقراطي تأتي من الجالية اليهودية.

5- حث اليهود على اختيار مـن يـرون أنـه يؤيـدهم ويـوالي إسرائيـل في المقـام الأول، يقـول تومـاس دايـن الـذي كـان مـديرا تنفيـذيا لإيبـاك في فـترة سـابقة: لم يـنجح أي ديمقراطي في انتخابات الرئاسة بدون أن يحظى بمـا لا يقـل عـن (70%) مـن أصـوات الهيود.

6- التواجد على الساحة الأمريكية بكل قوة بطرق ووسائل مختلفة كان منها استثمار التطور التقني والمعلوماتي الهائل الـذي شـهدته أمريكـا فيكفـي أن نعـرف أن لإيبـاك موقع فعال بدرجة غير عادية على الإنترنت كما يؤكد مديرها التنفيذي الحـالي هـوارد كور.

وفي ظل هذه السيطرة وذلك الاختراق المنظم نجح اللوبي اليهودي على مـدى عقود في توجيه مسار السياسة الأمريكية ناحية مصالح إسرائيل، ولهـذا تقـف معظـم هذه المؤسسات والمنظمات اليهودية بالمرصاد لأي متغير في السياسة يمكن أن يـؤثر في وضعية إسرائيل.

وقد حدث ذلك أكثر مـن مـرة عنـدما احتشـدت هـذه المـنظمات مـن أجـل هدف واحد، ففي (1977/10/2م) أثار البيان السوفيتي الأمريكي المشترك عاصفة مـن الاحتياجات لدى هذه المنظمات والجمعيات اليهودية والصهيونية وعلى رأسها إيبـاك لأن البيـان أدخـل فيـه عبـارة (الحقـوق المشروعة للشـعب الفلسـطيني) وضرورة مشاركته في مؤتمر السلام.

وقد ذكرت جريدة (واشنطن بوست) في نفس اليوم الذي أعلن فيه البيان أن الجالية اليهودية غاضبة جدا عـلى موقـف الإدارة الأمريكيـة وجـاء ذلـك عـلى لسـان رئـيس مجلـس المـنظمات اليهوديـة، وأشـارت أيضـا الجريـدة في عـددها بتـاريخ (1977/10/4م) أن منظمـة بنـاي بريـث قـد اتهمـت الإدارة الأمريكيـة بوقوفهـا مـع العرب ضد إسرائيل، والملفت أن الرئيس الأمريكي كارتر قد تراجع عن موقفه واعتبرت المنظمات اليهودية الأمريكية أن ذلك يعد انتصارا لها.

ولكن علينـا التأكيـد هنـا عـلى أن إيبـاك أو غيرهـا مـن المـنظمات الهيوديـة النافـذة والمسـيطرة ليسـت وحـدها التـي صـنعت الـولاء لإسرائيـل لـدى السـلطتين التشريعية وعامة المجتمع الأمريكي بـل إن هنـاك كـما ذكرنـا منظومـة قـيم أخلاقيـة وإيمانية تربط هؤلاء بإسرائيل وهذا ما أكـده :ث مـن عضـو في الكـونجرس الأمـريكي حيث يقول أحدهم عن

جماعات الضغط اليهودية (إنه بهم وبدونهم كان سيحدث نفس الشيء فالولايات المتحدة وإسرائيل بهم وبدونهم حليفان قويان..).

ويقول آخر: (إني أؤمن أنه حتى بدون اللوبي الإسرائيلي فإن الشعب الأمريكي سيبقى ملتزما بوجود إسرائيل..) ولهذا يجب علينا حتى تكتمل معالم الصورة أن نقترب من الأحزاب والسلطتين التشريعية والتنفيذية في الولايات المتحدة لنرصد ذلك الولاء المطلق لإسرائيل على مدى تاريخ الأحزاب وهاتين السلطتين.

***النظام السياسي الأمريكي.. أحزاب وسلطات في خدمة إسرائيل:

ليس ثمة شك في أن النظام السياسي لأي دولة هو الذي يبلور ويحدد اتجاهات المجتمع فيما يخص أوضاعه الداخلية وعلاقاته الخارجية، ومن الواضح أن النظام السياسي الأمريكي بكل تنوعاته وتناقضاته يكاد يصل إلى حالة اتفاق كلي فيما يخص العلاقة مع الكيان الإسرائيلي.

فهذا النظام هو الذي يترجم طموحات اللوبي اليهودي أو تنبؤات اليمين المسيحي المتشدد إلى مواقف ملموسة ونتائج ظاهرة وبدون هذا النظام ستتحول الطموحات إلى إخفاقات وتتحول التنبؤات إلى أساطير.

ولم يكن صعبا على متخذي قرار الحرب على العراق لصالح إسرائيل أن يجيشوا النظام السياسي نفسه قبل النظام العسكري، ولهذا علينا أن نتعرف على مفردات النظام السياسي الأمريكي الذي استطاع طوال عقود أن يستوعب ويحتضن الكيان الإسرائيلي ويتحمل تبعات هذا الولاء بكل قناعة، وسوف نختار هنا ثلاث مفردات تمثل أهم معالم هذا النظام وهي (الأحزاب والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية).

***أولا- الأحزاب الأمريكية:

والحزب كما هو في النظام السياسي الأمريكي ليس طائفة بل مجموعة طوائف قد تكون متنافرة، ولهذا فإن الحزبين الكبيرين الرئيسيين في أمريكا (الجمهوري

والديمقراطي) ليس لهما صفة التجمعات الأيديولوجية كما قد يوجد بوضوح في أكثر الأحزاب الأوروبية وفي العديد من بلدان العالم.

فإذا كان العامل الأيديولوجي العام له دوره وتأثيره في تقسيم الأحزاب فإنه في حالة هذين الحزبين لا يؤثر كثيرا، حيث لا يتعلق وجودهما بطبقات معينة كما في الأحزاب الاشتراكية بل إن الواضح أن التركيبة الاجتماعية والطبقية فيهما غير منسجمة تماما، ولا يتعلق وجودهما بقوة تيار دون آخر فإذا كانت الأحزاب الأوروبية تنقسم إلى ليبرالية ومحافظة فإن الحزب الأمريكي من الممكن أن يجمع بين هذين التيارين في صفوفه.

فالمنتمون لهذين الحزبين أبعد ما يكونوا عن الأيديولوجيات الشائعة بحيث من الممكن أن تجد عضوا ديمقراطيا أو جمهوريا ينتمي إلى اليسار فترة ثم يعود إلى اليمين أو إلى الوسط مرة أخرى وهكذا.. فمن الصعب في هذه الحالة أن تصف أحد الحزبين بأنه يساري أو يميني، فالحزب الجمهوري مثلا والذي فاز في أول انتخابات رئاسية عام (1860م) قد ضم في صفوفه ليبراليين ومحافظين.

وقد تغلب صفة معينة على هذين الحزبين حيث نرى الطابع المحافظ يغلب أحيانا على الحزب الجمهوري في حين يغلب الطابع الليبرالي على الحزب الديمقراطي لكن هذا ليس منهجا متأصلا ومتعمقا في داخل تركيبة الحزب، وبمعنى آخر فإن هذين الحزبين يمثلان مجموعات عرقية وألسنية وإقليمية تلتقي فيها الطبقات الاجتماعية والتيارات الفكرية كلها.

ويلاحظ أن الذي يجمع بين كل هذا الخليط هو عملية الاقتراع أو الانتخابات أو تعيين المرشحين، فالنظام الانتخابي هو الذي يحرك الأحزاب الأمريكية عموما أكثر من البعد الأيديولوجي عندما تتفق المصالح أكثر مما تتفق الأفكار.

هذا على المستوى الفكري والأيديولوجي للحزبين الجمهوري والديمقراطي أما على المستوى السياسي فإن النظام الحزبي الأمريكي عادة ما يكتسب صفة (الثنائية الحزبية) وهي تختلف كثيرا عن مفهوم (التعددية) والثنائية لا تعني مطلقا عدم وجود أحزاب أخرى غير هذين الحزبين فهناك الحزب العمالي أو حزب اتحاد العمال

الأمريكي والحزب الاشتراكي وحزب المزارعين وحزب تحريم المسكرات والحزب التقـديم وحزب الخضر.

وبعض هذه الأحزاب يحقـق نجاحـا في العمليـات الانتخابيـة بـل إن بعضـها يشترك في سباق التغزل والمديح لإسرائيل والدفاع عن مصالحها، وهـذا مـا حـدث مـن جورج ميني الذي كان رئيسا لحزب اتحاد العمال الأمريكي فقد هاجم الـرئيس كـارتر بسبب البيان الروسي الأمريكي المشترك الذي صـدر في (1977/10/2م) والـذي تحـدثنا عنه، فقد اعتبر جورج ميني أن هذا البيان معارض لمصالح إسرائيل.

إلا أن الفارق بين هذه الأحزاب والحزبين الكبيرين يجعـل توصـيف التجربـة الحزبية في أمريكا بأنها ثنائية وهذا يعني أن هناك حزبين كبيرين وحسـب يسـيطران بشكل دائم على المسرح السـياسي ويتـداولان السـلطة ويتقاسـمان جماعـة النـاخبين ولمـدة طويلـة وبطريقـة متسـاوية تقريبـا. أمـا تـأثير هـذين الحـزبين عـلى السياسـة الخارجية فهو عنصر قائم ويسمح به النظام الأمريكي، فهـذان الحزبـان تتزايـد نسـبة تأثيرهما على السياسة الخارجية كلما ازدادت الأغلبية البرلمانية لأحـدهما، والملفـت في الأمر- بدون غرابة- أن هناك اتفاق تام بـين الحـزبين الكبـيرين عـلى علاقـة الولايـات المتحدة بإسرائيل.

فإذا كنا قد توصلنا إلى ما يشبه اليقـين مـن أن علاقـة الولايـات المتحـدة مـع الكيان مبنية على أسس أيديولوجية وخاصة دينية فـإن هـذا أيضـا مـا يحـرك معظـم المنتمين من أعضاء هذين الحزبين، وذلك على الرغم من إفلاس الأحزاب الأمريكيـة في بنيتها التنظيمية من أي منظور أيديولوجي.

وثمة علاقات وطيدة ارتبط بها هـذا الحزبـان بإسرائيـل مـن ناحيـة وبـاللوبي اليهودي واليمين المسيحي المتشدد من ناحية ثانية وقـد أفـرزت هـذه العلاقـات ولاء تاما لإسرائيل، وعلى الرغم من ميل الجالية اليهودية إلى الحزب الديمقراطي حيـث أن ستة من بين كل عشرة يهود مع الحزب الديمقراطي ولهذا يتم تمويل أكثر مـن نصـف تكاليف حملاته الانتخابية من المال اليهودي، وفي الوقت نفسه نجد واحـداً مـن بـين كل

عشرة يهود مع الحزب الجمهوري إلا أن ذلك لا يمنع أي منهما لإظهار الولاء لإسرائيل كلما أتيحت الفرصة لذلك.

فالحزب الجمهوري أصبح معظم أعضائه إن لم يكن كلهم مؤيدين وموالين لإسرائيل وهذا ما أكده مارشال ويتمان وهو أحد المحافظين اليهود ومدافع عن التحالف المسيحي يقول: (لأول مرة في تاريخ الحزب الجمهوري فإن هناك دائرة انتخابية مهمة موالية لإسرائيل لابد أن تسترعي البيت الأبيض).

وفي الحقيقة فقد كان هناك بعض المنتقدين لإسرائيل أو المتحفظين في العلاقة معها من ضمن صفوف الحزب الجمهوري لكن ما يحدث أن هؤلاء يمارس عليهم ضغوطا كبيرة تجعلهم إما يتخلوا عن أماكنهم أو يتخلوا عن قناعاتهم، ومثال على ذلك عضو الحزب الجمهوري باتريك بيوكانان الذي وجه بعض النقد لإسرائيل فكان جزاؤه أن اتهم بمعاداة السامية وما كان من الحزب إلى أن أخرجه ومن أيده من صفوفه لتخلوا الساحة للمؤدين والداعمين لإسرائيل.

وحتى على مستوى الرؤساء الأمريكيين الذي تنوعت انتماءاتهم الحزبية ما بين الجمهوري والديمقراطي أثبتوا هذا الولاء، فالرئيس الأمريكي وودرو ويلسون وكذلك الرئيس فرانكلين روزفلت والرئيس هاري ترومان الذي اعترف بإسرائيل عند قيامها، وكذلك الرئيس جيمي كارتر وصولا إلى الرئيس بيل كلينتون وكل هؤلاء كانوا ديمقراطيين وقد عرف عنهم مساندتهم لإسرائيل كما أوضحنا سابقا.

وكذلك كان حال الرؤساء الجمهوريين مثل ريتشارد نيكسون والرئيس رونالد ريجان والرئيس جورج بوش والرئيس بوش الابن عرف عنهم ذلك الولاء وتلك المساندة لإسرائيل.

والملاحظ أن كلا الحزبين يقوم فيها بمراجعة الآخر إذا تعلق الأمر بالعلاقة مع إسرائيل، بل يقوم بمراجعة من ينتمون إليه إذا خرج عن هذا الإجماع، فقد أثار جيمس موران النائب الذي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي عاصفة من الانتقادات في فبراير (2003م) عندما انتقد اتجاه أمريكا الجارف للحرب.

ولم يكن انتقاده للحرب هو سبب هبوب العاصفة ضده بل لأنه ربط هذه الحرب بتأييد الجالية اليهودية وأشار إلى وضوح الدور اليهودي في الحرب فكان ذلك سببا في تنديد البيت الأبيض وأعضاء في الكونجرس وأعضاء في الحزب الديمقراطي بهذه التصريحات الخارجة عن المألوف، ولذلك اعتذر عنها موران فيما بعد!!

فقضية الولاء لإسرائيل هنا تتخطى حدود الحزبية كما هو واضح من مواقف كلا الحزبين الكبيرين، بل وتتخطى صناع القرار أنفسهم فالرئيس بوش الابن عندما أقدم على توجيه بعض اللوم لإسرائيل على ما حدث في مخيم جنين بفلسطين كانت هناك حملة شديدة من داخل الحزب الجمهوري الذي ينتمي إليه بوش مما جعله يتراجع عن موقفه.

وحدث نفس الشيء مع الحزب الديمقراطي الذي رفع عدد من أعضائه (34نائبا) رسالة إلى بوش الابن يشكونه بسبب انتقاده لإسرائيل على محاولة اغتيال عبد العزيز الرنتيسي وبررت الرسالة محاولة الاغتيال مما جعل بوش يتراجع أيضا.

فتأييد إسرائيل والدفاع عنها ملمح حزبي يشترك فيه أكبر حزبين أمريكيين، وهو ملمح ينطبق أيضا على مواقف السلطة التشريعية في الولايات المتحدة التي لا تنفصل كثيرا عن هذين الحزبين.

***ثانيا- السلطة التشريعية:

لا بد من الإقرار بأن صانعي القرار في كل دولة يتأثرون بمجتمعهم وبجملة مرتكزات ثقافية وسياسية واستراتيجية.. ولهذا فإن دراسة المتغيرات التي تطرأ على المجتمع تصلح لأن تكون خلفية ومدخلا لشرح وتفسير كيفية اتخاذ القرار في الهيئات التشريعية والتنفيذية.

والملاحظ أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة وخاصة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية هي محور مشترك بين الهيئتين، وذلك على الرغم من أن الهيئة التشريعية في أي دولة ليس لها دور كبير في تحديد مسار السياسات الخارجية إلا أن الكونجرس(8) بمجلسيه (النواب والشيوخ) يقوم بدور واضح في التأثير على قرارات

الهيئة التنفيذية (الرئيس ومجموعته) فيما يتعلق بتوجهاتهم الخارجية خاصة العلاقة مع الكيان.

فوجود التأييد القوي لإسرائيل في السلطة التشريعية يشكل كابحا لتدابير السلطة التنفيذية إذا ما انحرفت عن المسار عندما يشكلون جبهة ضغط قوية على الرؤساء الأمريكيين في حالة وجود أدنى تقصير مع الشأن الإسرائيلي.

فالكونجرس كان ولا يزال من أقوى الدعائم الرئيسية المساندة لإسرائيل وعاملا مهما من عوامل تقوية علاقة الولايات المتحدة بالكيان، ويشمل ذلك الكثير ممن ينتمون إلى الكونجرس سواء من الحزب الجمهوري أو الديمقراطي وسواء أكانوا ليبراليين أم محافظين.

وهذا ما أكده أكثر من شخص حيث ذكر السيناتور ويليام فولبرايت الذي قال في إحدى لقاءاته التليفزيونية عام (1973م) (الإسرائيليون يسيطرون تماما على القرار السياسي سواء في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ ففي كل موضوع يهم إسرائيل يثار في مجلس الشيوخ نجد ما بين خمسة وسبعين إلى ثمانين صوتا- من أصل مائة صوت- جاهزين للتصويت لصالحا).

وهنا علينا الإقرار بان هذا الدعم المطلق ليس لوجود أعضاء يهود في هذين المجلسين فقط فعددهم لا يشكل أغلبية على كل حال، ففي الكونجرس الثالث والتسعين مثلا كان لليهود ثلاثة أعضاء في مجلس الشيوخ واثني عشر نائبا في مجلس النواب وصل هذا العدد في الكونجرس الرابع والتسعين إلى ثلاثة شيوخ وعشرين نائبا وفي الكونجرس الثامن والتسعين وصل عددهم إلى ثمانية شيوخ وثلاثين نائبا.

فعلى الرغم من هذه الزيادة في العدد إلا أن ذلك لا يمثل السبب المباشر لوقوف الكونجرس مع الشأن الإسرائيلي، فلا ننسى وجود تيار مسيحي جارف يناصر إسرائيل من منطلقات دينية ولا ننسى أن أكبر حزبين سياسيين يتحكمان في مسيرة الكونجرس واتجاهاته أغلبهم من المناصرين لإسرائيل.. مع كل هذه المعطيات تكون المحصلة هي أن الهيئة التشريعية ممثلة في الكونجرس بمجلسيه الشيوخ والنواب من أقوى الداعمين لإسرائيل.

وإلا بماذا تفسر تلك التصريحات التي تظهر بين الحين والآخر ممثلة مجلس النواب أو الشيوخ وداعمة إسرائيل بقوة بمناسبة وبغير مناسبة، إلى درجة تحسب معها أن تلك التصريحات تخرج من الكيان الإسرائيلي وليس من مكان آخر، فهذا هو زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب توم يدلاي يصرح في (2003/7/29م) بل ويشجع ويحرض إسرائيل بمواصلة عدوانها حتى تصفية آخر مقاوم أو اعتقاله.

وإذا ما حدث تعارض- شكلي- بين الهيئة التنفيذية ممثلة في الرئيس ومجموعته فيما يخص إسرائيل فإن حالة استنفار كبيرة تحدث داخل الكونجرس من خلال ضغوط أو رسائل أو شكاوي أو غير من طرق لمحاولة تخفيف الضغط على إسرائيل، والتاريخ الأمريكي به أمثلة كثيرة على ذلك.

ففي عام (1975م) وجه ستة وسبعين عضوا بمجلس الشيوخ من أصل مائة عضو رسالة إلى الرئيس فورد يطالبون فيها باستمرار مساعدات الولايات المتحدة لإسرائيل، والرواية تقول إن الرئيس جيرالد فورد قد انتقد موقف إسرائيل الرافض لمغادرة سيناء بعد حرب (1973م) ولهذا علق المعونات لمدة ستة أشهر سنة (1975م) فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن تحرك لمساندة إسرائيل من خلال هؤلاء الأعضاء الذين وقعوا رسالة تأييد ومساندة لإسرائيل.

والطريف أن لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية إيباك وهو من أهم منظمات اللوبي اليهودي التي سبق الحديث عنها هي التي أعدت صيغة الرسالة الموقعة من أعضاء مجلس الشيوخ للرئيس الأمريكي فورد الذي تراجع في النهاية عن القرارات التي اتخذها!!

وحدث نفس الموقف بعد صدور البيان السوفييتي الأمريكي المشترك في (1977/10/2م) والذي أشرنا إليه وأكدنا أنه قوبل بعاصفة من الانتقاد لدى الجالية اليهودية ولدى الأحزاب ولدى الكونجرس أيضا الذي تحرك سريعا لاحتواء هذا الموقف، فقد نشرت جريدة (واشنطن بوست) في (1977/10/4م) رسالة نقد من السيناتور هنري جاكسون والسيناتور دانيال مونياهان التي وجهوها إلى الرئيس كارتر لإصداره هذا البيان، وفعل ذلك عدد من النواب مثل النائب سيدني يتس والنائب

جوانثان بنجهام وكلهم وجهوا إلى كارتر نفس الرسالة.. ولم تنته القصة عند ذلك ففي ظل هذا الضغط المتزايد وفي ظل حرص كارتر نفسه على ألا يغضب إسرائيل تراجع عن موقفه وتبرأ من هذا البيان ولهذا فقد تراجع أعضاء الكونجرس عن عقد مؤتمر صحفي كانوا يحضرون له للاحتجاج على الرئيس، وسحب مائة وخمسون عضوا من الكونجرس رسالة احتجاج كانت ستقدم للرئيس!!

وأضاف كارتر إلى هذا التراجع الاعتذار الرسمي والعلني أمام ستة عشر عضوا يهوديا من أعضاء الكونجرس واعتذر أمامهم وأكد دعمه لإسرائيل وذكر بأنه مستعد للقيام بعمل سياسي انتحاري على أن يتخلى عن إسرائيل.

ومثل هذه القصة حدثت في عهد الرئيس جيمي كارتر ففي (20مارس 1980) مثل سايروس فانس الذي كان وزير خارجية الولايات المتحدة وقتها أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ليبين خطأه في نقل معلومات أدت إلى تصويت الولايات المتحدة في صالح القرار (465) الصادر من مجلس الأمن والذي يشجب سياسة إسرائيل الاستيطانية ويدعو إلى تفكيك مستعمراتها القديمة.

وهنا قام مجلس الشيوخ بدوره الفعال في محاسبة المسؤولين عن هذا التقصير الهائل، إذ كيف تقدم الولايات المتحدة على المشاركة في قرار من مجلس الأمن يدين إسرائيل بشكل أو بآخر؟! ولهذا مارس المجلس ضغوطا هائلة على الرئيس كارتر الذي تنصل من هذا القرار وجعل وزير خارجيته يتحمل وحده هذا الخطأ الفادح.

ونفس الشيء وتلك الضغوط مورست على الرئيس بوش الأب عندما حاول عام (1991م) أن يؤجل دفع ضمانات قروض بقيمة عشرة ملايين دولار لإسرائيل من أجل بناء مستوطنات تستوعب المهاجرين الروس، ولهذا مورست عليه ضغوطا كبيرة من السلطة التشريعية.

إن كل تلك المفردات توصلنا تدريجيا لتأكيد ارتباط الأحزاب والسلطة التشريعية بإسرائيل وانعكاس ذلك على كل مرافق المجتمع الأمريكي وعلى رأسه السلطة التنفيذية.

***ثالثا- السلطة التنفيذية:

السلطة التنفيذية الاتحادية هي المعروفة باسم الإدارة الأمريكية أو الحكومة The Administration تقوم على شخص رئيس الجمهورية ونائبه ومساعديه ومستشاريه ووزرائه.

والرئاسة حسب النظام الدستوري هي الثانية بعد السلطة التشريعية وفق إرادة الآباء المؤسسين وحسب ما أشارت نصوص الدستور[9] ولكنه أيضا يضطلع بجانب من السلطة التشريعية فالقوانين لابد أن يصادق عليها.

ونائب الرئيس[10] يعد أيضا من قمم السلطة التنفيذية على الرغم من تفاهة هذا المنصب كما رأى العديدون وأمله الوحيد أن يكون رئيسا في حالة وفاة الرئيس وهذا ما حدث ثمان مرات في تاريخ الرؤساء الأمريكيين وبإمكانه أن يحل محل الرئيس مؤقتا إذا كان الرئيس لا يستطيع القيام بمهامه مثلما حدث عندما حل جورج بوش الأب محل ريجان لمدة ثمان ساعات في عام (1985م)، وعندما حل ديك تشيني نائب الرئيس محل بوش الابن في أعقاب أحدث (11سبتمبر) لفترة.

ويضاف إلى ذلك موظفي البيت الأبيض ومجموعة الأشخاص الذين يعملون معه عن قرب، وكذلك توجد مؤسسات تابعة للرئيس مباشرة مثل مجلس الأمن القومي The National Security Council وقد تأسس هذا المجلس في يوليو (1974م) ويعد مصدرا استشاريا للرئيس في شؤون الدفاع والسياسة الخارجية ومهمته تنسيق السياسة العسكرية والخارجية لخدمة مصالح الدفاع والأمن القومي، والمفلت أن هذا المجلس قد طغى أحيانا على دور وزارة الخارجية في صنع القرار حتى أنه نافسها في كثير من المواقف، وقد لعب هذا المجلس ورئيسته كونداليزا رايس دورا بارزا في فترة الإعداد الحرب وأثناءها وما بعدها.

وفي كل الأحوال يبقى الرئيس الأمريكي هو أعلى قمة هرم السلطة التنفيذية، وربما ذلك في الكثير من النظم السياسية في العالم سواء أكانت ديموقراطية أم تسلطية، حيث إن السلطة التنفيذية وعلى قمتها الرئيس وصناع القرار تلعب الدور الأكبر في عملية صنع السياسات الخارجية.

وقد اكتظ التاريخ الأمريكي بعشرات الأمثلة التي تصدرت فيها صورة الرئيس وعباراته قمة المشهد السياسي فيما يتعلق بالشأن الخارجي وخاصة العلاقة مع إسرائيل، ولذلك كانت رصد مواقفهم وعلاقاتهم بإسرائيل مؤشرا لتعميم ذلك على باقي عناصر السلطة التنفيذية وقد سبق وتحدثنا عن مواقف أكثر هؤلاء الرؤساء ومدى ولاءهم لإسرائيل وارتباطهم بها ارتباطا دينيا. وعلينا أن نؤكد في ختام هذا الفصل على أن من الممكن أن يحدث خلاف بل وصراع بين مفردات الحياة والنظام السياسي الأمريكي سواء فيما يخص الأحزاب أو الانتخابات أو مهام الكونجرس السلطة التشريعية أو مهام الرئيس ومجموعته السلطة التنفيذية وهذا ما يميز الحياة الأمريكية عموما وجود مثل هذا الحراك السياسي الدائم. لكن على الرغم من ذلك تجد ما يشبه الاتفاق بين هذه العناصر والمفردات ومفاصل النظام السياسي في قضية محورية هي أمن إسرائيل ومصلحتها والولاء لها، ولسنا نحتاج هنا للتدليل على ذلك ولكنا سنضرب مثالا واحدا ربما أقرب إلى وصف ما نريد التأكيد عليه. ففي عملية الانتخابات الرئاسية تلك التي تعد أكبر صورة يزدحم فيها المشهد السياسي الأمريكي بالضجة والضجيج دائما ما نرى المرشحين يختلفون في قضايا متعددة تعبر عن مرجعية وخلفية كل منهم السياسية والثقافية، مثلما كان الخلاف بين رونالد رجان الجمهوري ومونديل الديمقراطي فقد اختلفا في كثير من القضايا مثل الاقتصاد أو عجز الميزانية أو وضع المرأة.. لكنهما كانا يتفقان بصورة كبيرة في الولاء لإسرائيل والحفاظ عن مصالحها. والأمثلة كثيرة على هذه الحالة من التماهي الأمريكي في الشأن الإسرائيلي، ولهذا لم يكن مستغربا أن يخرج المحافظون الجدد الذي خططوا وقادوا الحرب على العراق من رحم هذه المعطيات، فهم متواجدون بشكل ملفت في كل هذه المفاصل والعناصر التي تحدثنا عنها فهم في اليمين وفي اليسار أيضا وهم في الحزب الديمقراطي كما هم في الحزب الجمهوري وهم في الكونجرس كما هم في السلطة التنفيذية.

وكان لابد من تقديم هذه الخلفية العامة عن كل هؤلاء حتى يسهل علينا تحديد مفهوم المحافظين الجدد ودورهم وقدراتهم.. وهو ما سنستعرضه بالتفصيل في الفصل التالي.

الفصل الرابع

المحافظون الجدد.. مهندسو الحرب على العراق

*****المحافظون الجدد.. مهندسو الحرب على العراق:**

كان لابد من استعراض كافة مفردات الصورة في الساحة السياسية والثقافية الأمريكية قبل الحديث عن تيار المحافظين الجدد، لأنه من المستحيل أن يخرج تيار ما سياسي أو فكري من الفراغ، ومن المستحيل أيضا أن يمارس دوره- قويا كان أم ضعيفا- في هذا الفراغ، فلابد من وجود مرجعية يؤمن به أفراد ومؤسسات تطبق المرجعية عن طريق هؤلاء الأفراد.

والحاصل أن المحافظين الجدد الذين ملئوا سماء السياسة الأمريكية بالصخب والضجيج هم من نسيج المجتمع الأمريكي ذاته ليسوا خارجين عنه إنهم نتاج فكر ديني وثقافي تراكم عبر سنوات من عمر التجربة الأمريكية امتزج في هذا الفكر مفردات الدين اليهودي والمسيحي ومفردات اليمينية والليبرالية كذلك بل ومفردات المصالح الشخصية والطموحات الفردية وتجسد ذلك في مؤسسات تخص اللوبي اليهودي أو اليمين المسيحي المتشدد أو مؤسسات الحكم في الولايات المتحدة التابعة للسلطة التشريعية أو التنفيذية.

فمن المحافظين الجدد من ينتمي إلى اليسار المتطرف ومنهم من ينتمي إلى اليمين المحافظ ومنهم من هو يهودي ومنهم من يمثل التيار المسيحي المتشدد أو الصهيونية المسيحية ومنهم من هو عضو في الكونجرس ومعظمهم ينتمون للحزب الجمهوري وإن كنا لا نعدم لهم وجودا داخل الحزب الديمقراطي ومنهم من هو في مجموعة الرئيس وتشكيلته المعروفة، ومنهم كذلك من هم خارج مفاصل النظام حيث ينتمون إلى وسائل الإعلام ومراكز ومعاهد البحوث والدراسات إنهم خليط من كل النخب المؤثرة في الولايات المتحدة الذين تربوا على مبادئ سياسية واجتماعية غلفتها تلك المسحة التوراتية.. وهذا الخليط يرتكز على مرجعية متقاربة بل تكاد تكون واحدة تعتمد خططا واستراتيجيات مرسومة بدقة، والملفت أنهم لا يكتفون بالتنظير وطرح الأفكار هنا وهناك.

فقد بدأوا في الوصول إلى صناعة القرار الأمريكي والمؤسسات الفاعلة فيه وفي مجالات مختلفة، ويعتبرهم البعض من ذوي الولاء المزدوج تارة لإسرائيل وتارة للولايات المتحدة وإن كنا نميل إلى وصفهم بالولاء الواحد لإسرائيل ولمبادئ التوراة فهم إسرائيليون أكثر من كونهم أمريكيين!! لكن علينا في كل الأحوال تعقب مراحل بروز هذا التيار في تاريخ المجتمع الأمريكي الحديث وصولا إلى قوتهم ودورهم الراهن.

***بداية التواجد لا بداية الوجود:

في ظواهر الطبيعة ثمة تعارف على أن ما هو كامن هو في الوقت ذاته كائن، وأقصد بذلك أنه قد يكون موجودا لكنه غير فاعل أو متواجد بقوة، لكن عدم تواجده لا يعني عدم وجوده.. فالذرة موجودة لكنها تصبح قوة مدمرة إذا تم تفعيلها، والفيروسات موجودة لكنها تتحين الفرصة للقيام بدورها في حدوث المرض.. تلك حقائق العلوم الطبيعية وهي تنطبق أيضا على حقائق السياسة بل والكثير من مناحي الحياة.

فتيار المحافظين الجدد كان له جذوره الممتدة بعمق التاريخ الأمريكي ذاته وإن اتسم بالقوة حينا أو بالضعف أحيانا أخرى.. وقد توصلنا من قراءة هذا التاريخ أن التيارين الليبرالي والمحافظ سارا جنبا إلى جنب في ذهنية الشخصية الأمريكية، وذلك على الرغم من استقواء التيار الليبرالي فترات طويلة حتى أنه وسم الحياة الأمريكية كلها، لكنه لم يقض على التيار المحافظ، وتلك من طبائع الأمور وبدهياتها.

فالتيار المحافظ كان موجودا عبر عن نفسه هنا وهناك وكان في الوقت ذاته يتحين الفرص لكي يبسط سيطرته على مناحي الحياة الأمريكية، ولعنا نرصد هنا في نقاط زمنية مدى تمدد هذا التيار تدريجيا فعلى الرغم من اعتقاد البعض أن هذا التيار ظهر في عهد الرئيس الأمريكي ريجان في الثمانينات إلا أننا مطالبون بالرجوع إلى الخلف قليلا لتلمس جذوره التاريخية الحديثة من خلال النقاط التالية:

1- ظهـرت في منتصـف الخمسـينات عـدة أدبيـات حاولـت أن تنـازع التيـار الليـبرالي وتنافسه في طرح النظريات والرؤى ومنها كتاب (العقـل المحـافظ) الـذي ألفـه راسـل كيرك في عام (1953م) ويعد من المرجعيات الأيديولوجية لليمين المحافظ.

2- وقد ظهر في الستينات من القرن الماضي موجة من المواقف السياسية التي حركـت بعض المفاهيم واعتبرت نوعا من التمرد على الليبرالية، ففي عام (1964م) ظهر جولد ووتر المرشح الجمهوري للانتخابات الأمريكية والذي كان معروفا بتطرفـه لدرجـة أنـه هدد علنا بضرب الاتحـاد السـوفييتي بالقنابـل الذريـة، وبغـض النظـر عـن فشـله في الانتخابات إلى أن طروحاته وجدت صدى ما في المشهد السياسي والفكري، وتزامن مع هذا الطرح ما كان ينادي بـه مكـارثي عضـو الكـونجرس الأمـريكي الـذي تنسـب إليـه المكارثية وقد نال شهرة كبيرة لحملته الشرسـة عـلى اليسـاريين بحجـة خطـرهم عـلى أمريكا.

3- وجاء استئثار الحزب الجمهوري منذ عام (1968م) عـلى مقاليـد الإدارة الأمريكيـة باستثناء فترة كارتر في السبعينات وكلينتون في أواخر القرن المـاضي.. جـاء ذلـك دافعـا للتيار المحافظ على اعتبار أن الحزب الجمهوري هو حزب اليمـين التقليـدي، وإن كنـا قد طرحنا سلفا أن الحزب الديمقراطي هو الآخر خاصـة في الوقـت الـراهن قـد بـات يتبنى الطروحات اليمينية مثلما يفعـل الحـزب الجمهـوري، إضـافة إلى أننـا أكـدنا أن التقسيمات الأيديولوجية (يمين يسار) تتماوج في الحزبين الأمريكيين الكبيرين ولا تكاد تظهر بوضوح.

4-والدليل على أن الحزب الـديمقراطي أسـهم هـو الآخـر في تكـريس تيـار المحـافظين الجدد على الرغم من اعتباره ليبرالي، هو أن الرئيس جيمي كارتر الذي تسـلم الحكـم في (1976م) بدأ في عهده التمرد عـلى سياسـة الوفـاق مـع الاتحـاد السـوفييتي وبـدأ المزج بين السياسة والدين وطرح القيم الأخلاقية بل وطرح ما سمى بمبدأ كارتر الـذي يهدف إلى التدخل في الخليج، إضافة إلى مواقـف كـارتر المؤيـدة لإسرائيـل والمؤسسـة على اعتبارات دينية توراتية، خاصة مع ظهور حزب الليكـود في الكيـان الإسرائـيلي في (1977م) الذي يحسب من الصقور، فكل تلك المعطيات في عهد كارتر عجلت بظهور

اليمين بقوة لأن كارتر نفسه كان يمثل أقصى يمين الحزب الديمقراطي، بل إن بعض منتقدي سياسة بوش الابن الداخلية من الديمقراطيين هللوا له ورحبوا بحربه على العراق وتناسوا إلى حين كل أخطاء بوش التي كانوا يتحدثون عنها، ومثال على ذلك موقف روبرت ويكسلر وهو يهودي وعضو الكونجرس المنتمي إلى الحزب الديمقراطي المحسوب على الليبرالية قد بارك خطوات بوش في حربه على العراق.

5- ومع بداية الثمانينات بدأ تراجع التيار الليبرالي وضعفه وقد تمثل ذلك في الحملة الانتخابية التي أوصلت رونالد رجان إلى الحكم، وكانت حملته من أضعف الحملات الرئاسية في تاريخ الولايات المتحدة، وقد شكل ذلك طعنة للتيار الليبرالي وبداية انحصاره وترجعه.

6- ولهذا السبب يعتبر البعض أن عام (1980م) هو عام التغيير الحقيقي الذي نتج عنه بروز تيار المحافظين وانحصار الفكر الليبرالي وبذلك انفتح الباب أمام هذا التيار ليتغلغل في أعلى المناصب القيادية بداية من الحملة الانتخابية ووصولا إلى الإدارة الأمريكية، لكننا ما زلنا نؤكد على أن فترة الثمانينات غير مقطوعة الصلة بما قبلها بل هي أضافت إليها ورسخت ما طرح فيها من مفاهيم، ونضرب مثالا على ذلك بإحدى مؤسسات التيار المحافظ التي ظهرت في السبعينيات وتحديدا في يناير (1974م) وهي مؤسسات التراث Heritage Foundation وهو منظمة بحثية قويت في الثمانينات حتى أنها وصلت إلى الكيان الإسرائيلي، فقد ضمت إليها في عام (1982م) الجنرال الإسرائيلي أمير دروري الذي كان من قواد العدوان الإسرائيلي على لبنان في (1982م) وقد انضم إلى هذه المؤسسة بصفته مستشارا للشؤون العسكرية، واللافت أن هذه المؤسسة قد تحكمت في الكثير من قرارات الإدارة الأمريكية في عهد ريجان كما ذكرت مجلة (التايم) في عددها بتاريخ (1984/12/3م) حيث أكدت أن الرئيس ريجان قد نفذ أكثر من (60%) من مقترحات هذه المؤسسة!! فما أردنا التدليل عليه أن اليمين المحافظ كان موجودا قبل عام (1980م) لكنه كان وجودا مبعثرا وبدخول ريجان إلى الحكم أصبح وجودهم أكثر تنظيما.

7- ولا ننسى أن هناك نقطة هامة تتعلق ببروز تيار المحافظين ربما في كثير من بلدان العالم وهو استشراء الفساد الخلقي والإداري والسياسي وهذا ما حدث في فترة رئاسة ريجان إلى حد ما، فقد فاحت رائحة قضايا فساد وقضايا غموض سياسي أزكمت الأنوف ومنها قضايا شركات النفط في تكساس ولوبي السلاح.. وتلك الحوادث عادة ما تجعل الأفراد والمجتمعات تميل إلى العودة إلى الأخلاق والقيم والمطالبة بتطبيقها في الحياة.

ولقد أتاحت كل هذه الظروف والمعطيات السابقة لتيار المحافظين الجدد من الاستمرار وبقوة وصولا إلى الوقت الراهن وخاصة منذ تسلم جورج بوش الابن الحكم في الولايات المتحدة، فقد أصبح هؤلاء قوة لا يستهان بها في تحريك مجريات الأمور ورسم سياسات الولايات المتحدة الخارجية وكان من أهمها هو الحرب في أفغانستان على ما سمي بالإرهاب وكذلك الحرب الأخيرة في العراق.

وعلينا هنا الوقوف عند أهم هؤلاء الذين ينتسبون إلى ذلك التيار القوي لنرى في النهاية كيف أنهم تغلغلوا في داخل مفاصل النظام الأمريكي بكل تجلياته وتنوعاته، ولنرى في الوقت ذاته مدى ولاء هؤلاء إلى إسرائيل وحرصهم على مصالحها حتى نصل إلى قناعة طالما رددناها في سياق تلك الدراسة أن تلك الحرب الأخيرة على العراق من مصلحة إسرائيل بلك المقاييس.

*****الرواد وأهم المنتسبين لتيار المحافظين الجدد:**

وقد برز من هؤلاء التوراتيين الجدد مجموعة من المسؤولين الأمريكيين الذين يشكلون الصف الأول والثاني في إدارة بوش الابن والملاحظ أن أكثرهم تركز في وزارة الدفاع حتى أطلق عليهم البعض صقور البنتاجون وتركز بعضهم في وزارة الخارجية وكذلك موظفي البيت الأبيض إضافة إلى من هم داخل الأحزاب وداخل الكونجرس.. وسوف نحاول الحديث عن بعض أهم هذه الرموز ومنها:

1- وزير الدفاع الأمريكي نفسه دونالد رامسفيلد الذي ينتمي إلى المؤسسة العسكرية الوطنية The National Military Establishment وهذه المؤسسة قديمة أنشأها

الكونجرس عام (1947م) وتضم وزارة الدفاع The Debartment Of Defence ويرأسها وزير الدفاع وهو مدني، وتضم المؤسسة هيئة الأركان المشتركة والتي تتولى تقديم المشورة العسكرية للرئيس الأمريكي، والملاحظ أن المؤسسة العسكرية أصبح لها دور واضح في صناعة السياسة الخارجية الأمريكية وهذا ما أكدته حرب أفغانستان وحرب العراق، وما كان من دور لوزير الدفاع من تهيئة الأجواء لهذه الحروب.

2- ومن هؤلاء بول وولفويتز نائب وزير الدفاع وعضو في مجلس سياسة الدفاع في البنتاجون وهو يهودي أمريكي له ارتباطات بالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية وقيل إن أخته تعيش في داخل الكيان الإسرائيلي.

3- دوجلاس فيث وكيل وزارة الدفاع أو مساعد مستشار السياسة والدفاع في البنتاجون وهو يهودي موالي لإسرائيل وتربطه علاقات حميمة بنتنياهو لدرجة أنه كتب مذكرات نتنياهو في منتصف التسعينات وله ارتباطات أيضا بالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وله كذلك علاقات بمنظمة متطرفة تسمى المنظمة اليهودية الأمريكية وقد شارك في مؤتمراتها والعديد من فاعلياتها، إضافة إلى أنه يدير مؤسسة قانونية باسم فيث أند زيل وهذه المؤسسة تمتلك مكتبا في إسرائيل بل وتمثل مصالحها داخل الولايات المتحدة.

4- ريتشارد بيرل وهو يهودي كان مستشارا لوزارة الدفاع ثم استقال أثناء الحرب على العراق فقد عمل رئيسا لمجلس سياسة الدفاع في البنتاجون، وقد كان مساعدا أسبق أو نائبا لوزير الدفاع لشؤون سياسة الأمن الدولي في الفترة من (1981م إلى 1989م) في عهد الرئيس ريجان، وسجله السابق يكتظ بالفضائح فقد طرد من مكتب السيناريو هنري جاكسون في السبعينيات بتهمة تسريب وثائق سرية للغاية تخص الأمن القومي الأمريكي إلى السفارة الإسرائيلية مما يدل على أنه قد يضحي بكل شيء من أجل إسرائيل التي يتعاون معها بكل الطرق فقد عمل فترة في شركة سولتام الإسرائيلية للأسلحة، وقد اقترن اسم بيرل مؤخرا وتحديدا في أغسطس (2002م) بتقرير أعدته المؤسسة البحثية المتخصصة في الشؤون الأمنية واسمها راند كوربوريشن والتي خصصته للملكة العربية السعودية وأوصت من خلاله بأن توضع المملكة على رأس قائمة أعداء الولايات المتحدة، وقد وضع هذا التقرير أمام اللجنة الاستشارية لمجلس

سياسة الدفاع التي كان يرأسها بيرل، وارتبط كذلك بعدد من المؤسسات الصحافية فهو عضو في مجلس إدارة صحيفة جيروزاليم بوست العبرية التي تصدر في إسرئيل، ويدير شركة هولينجر ديجيتال وهي مؤسسة صحافية تشرف وتدير عدة جرائد ومجلات منها صحيفة (الديلي تليجراف) وصحيفة (الصنداي تلجراف) في لندن، إضافة إلى أنه أسس شركة لخدمات الأمن الداخلي في نوفمبر (2001م) وكان من ضمن شركاته هنري كيسنجر، أما سبب استقالة بيرل الأخيرة من رئاسة مجلس سياسة الدفاع فهو بسبب فضائح مالية فجرتها حملة إعلامية عليه من بعض الصحف وأهمها النيويوركر والتي قامت على أساس وجود تناقض بين علاقاته بشركات إنتاج السلاح ومنصبه الرسمي، فالاستقالة نتيجة أسباب وفضائح مالية، حيث أكدت الصحف أن بيرل تقاضى مبالغ مالية من شركات السلاح أثناء عمله كرئيس لمجلس سياسة الدفاع، ولهذا قدم استقالته لكنه احتفظ بموقعه في مركز دراسات المشروع الأمريكي، وأتذكر أن استقالة بيرل قد فسرت من الجانب العربي والإسلامي أثناء الحرب على العراق أنها تعتبر فشل أمريكي، فقد هلل الكثير لهذه الخطوة اعتقادا أن الخطة الأمريكية في الحرب على العراق تتعرض للفشل والتراجع.

5- إليوت إبرامز وهو يهودي ويعمل مسؤولا للشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي وتعتبر كونداليزا رايس هي رئيسته في العمل، والملاحظ أن شخصية إبرامز مثيرة للجدل، فقد ارتبط اسمه بفضيحة إيران كونترا أو ما سمي إيران جيت[11] والتي تفجرت عام (1987م) وكان يشغل وقتها منصب مساعد وزير الخارجية في عهد ريجان، حيث اتهم بأنه حجب معلومات وتضليل ثلاث لجان من الكونجرس أثناء التحقيق في هذه القضية، لكنه حصل على عفو رئاسي من جورج بوش الأب عام (1990م)، ولا يهمنا كثيرا ارتباط إبرامز بهذه الفضيحة بقدر ما يهمنا التأكيد على مدى تشدده وميوله تجاه إسرائيل حيث يعتبر من غلاة المحافظين الجدد، وقد أحيط تعيينه في منصبه بضجة كبيرة وبمعارضة من البعض لكنه حظي بتأييد واضح من تيار المحافظين الجدد الموالين لإسرائيل، وما يلفت النظر في سيرة إبرامز أنه خلط العمل السياسي بالعمل الأيديولوجي فقد أصدر كتابا عام (1998م) بعنوان (الإيمان أو

الخوف.. كيف يمكن لليهود العيش في أمريكا مسيحية) والكتاب رؤية انتقادية صاغها بحماسة شديدة مطالبا فيها كافة اليهود بالمشاركة مع المسيحيين الإنجيليين في دعم إسرائيل ومنتقدا ضياع البعد الديني لدى اليهود وضعف الإيمان لديهم على حد قوله، وعلى الصعيد السياسي برزت مواقف إبرامز بوضوح وهي منسجمة مع مرجعياته الفكرية حيث كان يهاجم بشدة الفلسطينيين وعارض ما تم توقيعه بينهم وبين إسرائيل من اتفاقيات خاصة أوسلو، فقد كتب ذات مرة في أكتوبر (2000م) يحمل الفلسطينيين مسؤولية ما يحدث ويقول: (إن القيادة الفلسطينية لا تريد سلاما مع إسرائيل ولن يكون هناك سلام) وهو من الذين طرحوا فكرة عدم الثقة في ياسر عرفات وضرورة عزله وتهميشه، وقد نجحت هذه الأفكار في التأثير على بوش الابن بدرجة كبيرة.

6- آري فلايشر الذي كان الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض في إدارة جورج بوش الابن حتى يوليو (2003م) عندما انتهى عمله، وهو يهودي يحمل الجنسية المزدوجة (الأمريكية والإسرائيلية) وعلى الصعيد الفكري فإن مرجعيته تستقى مما يسميه الأخلاقيات اليهودية، ولهذا تربطه علاقات جيدة بالكيان الإسرائيلي وبمجموعات يهودية متطرفة مثل منظمة (تشاباد لوبافيتش الحديسية).

7- لويس ليبي وهو يهودي موالي لإسرائيل ويعمل رئيسا لهيئة الموظفين التابعين لديك تشيني نائب الرئيس.

8- أرفينج كريستول وهو أستاذ جامعي يهودي من نيويورك ويعد منظرا كبيرا لتيار المحافظين الجدد خاصة في ظل وجود ابنه وليام كرستول ضمن هذا التيار.

9- وليام كريستول وهو متأثر بأبيه وبأفكاره، وخاصة في مسألة الموالاة والدعم لإسرائيل، وكان يشغل منصب رئيس هيئة موظفي نائب الرئيس الأمريكي الأسبق ذان كويل أما عمل كرستول الحالي فهو يشغل منصب رئيس الأمريكي الأسبق ذان كويل أما عمل كريستول الحالي فهو يشغل منصب رئيس تحرير مجلة (ذي ويكلي ستاندرد) وهي إحدى المجلات التابعة لمؤسسات الصهيوني روبرت مردوخ الإعلامية، وقد قام كريستول بالتعاون مع مجموعة من الشخصيات اليمينية والصهيونية الأمريكية ومعظمهم من العاملين في السياسة الخارجية باقتراح مشروع القرن الأمريكي وهي رؤية سياسية

تطرح المستقبل الأمريكي وتبشر بالهيمنة الأمريكية على العالم وتدعم فكرة العدوان على العراق وسوريا، وسوف نتكلم عن هذا المشروع لاحقا.

10- وحتى من كان يوصف بالحمائم في صفوف الإدارة الأمريكية الراهنة مثل وزير الخارجية كولن باول الذي أثير عنه أن له جد أعلى يهودي من جهة والده وهو يتحدث اللغة اليدشية، لغة اليهود التي كانت سائدة في أوروبا، وقد اعتبر البعض باول معتدلا لكنه بعيدا عن صحة نسبة اليهودي أصبح يتماهى مع هذا التيار وينسجم معه، ويشاركه في هذا التوجه ريتشارد أرميتاج نائب وزير الخارجية.

ولا يجب أن ننسى مقولات باول عندما كان رئيسا لهيئة الأركان المشتركة الأمريكية أثناء حرب الخليج الثانية وذلك في خطاب له بتاريخ (1991/3/19م) أمام المؤتمر الثاني والثلاثين للهيئة الأمريكية الصهيونية للعلاقات العامة المعروفة باسم إيباك التي تعد أقوى منظمات اللوبي الصهيوني وأكثرها تأثيرا على المجتمع الأمريكي.

فقد قال باول أمام هذا اللوبي: لن تضحي الولايات المتحدة بأمن إسرائيل على الإطلاق وقد أكدت ذلك عملية عاصفة الصحراء.. وهذا ما أكده نورمان شوارزكوف اليهودي الأمريكي الذي كان قائدا للقوات المتحالفة في حرب الخليج الثانية حيث ذكر في يوليو (1991م) أن حرب الخيلج كانت من أجل أمن إسرائيل والمنطقة وإنني شخصيا مخلصا لإسرائيل سواء أكنت في الخدمة أو خارجها .

هؤلاء تقريبا يمثلون أرقى المناصب القيادية في إدارة بوش الابن وهناك العديد غيرهم ممن يمثلون الصف الثاني من هذه الإدارة وإن كانوا أقل شهرة من السابقين لكننا سنلقي الضوء على أهم باختصار:

1. (هنري كسينجر) الذي يعرفه الجميع والمهم أنه الآن أحد المستشارين في البنتاجون وعضو في مجلس سياسة الدفاع الذي كان يرأسه ريتشارد بيرل والملفت أن كسينجر كان من أشد المؤيدين للحرب على العراق.
2. (رالف ريد) رئيس الحزب الجمهوري في ولاية جورجيا والمدير السابق للتحالف المسيحي المحافظ.

3. (جاري بوير) ينتمي لليمين المسيحي المحافظ ويترأس مركز أبحاث يدعى القيم الأمريكية.
4. (جون بولوتون) ويعد ممثلا لهذا التيار في وزارة الخارجية الأمريكية حيث يشغل منصب مساعد وزير الخارجية للشؤون الدولية والسيطرة على التسلح.
5. (إدوارد لوتواك) وهو يهودي ويعمل عضوا بفريق أبحاث الأمن القومي في وزارة الدفاع، ويحمل الجنسية الإسرائيلية بل إنه تلقى تعليمه في إسرائيل وكان من أشد المتحمسين للحرب على العراق.
6. (دوف زاخيم) وهو يهودي يعمل مساعدا لوزير الدفاع ومراقب الحسابات ورئيس قسم المالية في وزارة الدفاع الأمريكية والملفت للنظر أنه حاخام ويحمل الجنسية الإسرائيلية!!
7. (كينيث أدلمان) أحد المستشارين في البنتاجون ويعمل عضوا في مجلس سياسة الدفاع وهو يهودي معادي للعرب وموالي لإسرائيل وكان مؤيدا للحرب على العراق بشكل لافت.
8. (روبرت ساتلوف) وهو يهودي يعمل مستشارا في مجلس الأمن القومي وكان المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط.
9. (مارك جروسمان) وهو يهودي يعمل معاونا لوزير الخارجية للشؤون السياسية.
10. (ريتشارد هاس) وهو يهودي يعمل مديرا لقسم التخطيط السياسي في وزارة الخارجية وهو أيضا مدير برامج الأمن القومي وعضو رفيع المستوى في مجلس العلاقات الخارجية وعضو في فريق أبحاث الأمن القومي التابع للبنتاجون.
11. (روبرت زيوليك) وهو يهودي يعمل ممثلا للتجارة الأمريكية وذلك منصب وزاري.
12. (جيمز شلزنجر) وهو يهودي ويعمل مستشارا للبنتاجون وعضو في مجلس سياسة الدفاع ومفوض فريق أبحاث الأمن القومي التباع للبنتاجون.

هؤلاء هم بعض أهم رموز تيار المحافظين الجدد داخل الولايات المتحدة وقد لاحظنا عدة ملاحظات سنوجزها فيما يلي:

- تتوزع انتماءات هذه الفئة بين اليمين المسيحي ونسبة لا يستهان بها من اليهود.
- خريطة وجودهم وقوتهم تشير إلى أنهم يتحكمون في أهم مفاصل النظام السياسي والعسكري الأمريكي ما بين البنتاجون ووزارة الخارجية والبيت الأبيض.
- ظهور ولاء وإخلاص هؤلاء الواضح لإسرائيل وحرصهم على مصالحها ربما أكثر من مصالح الولايات المتحدة ذاتها.. فلم تغب هذه الرؤية المحورية إسرائيل وجودها وأمنها ومصالحا عن هؤلاء التوراتيين الجدد.
- العلاقة العضوية التي تربط معظم هؤلاء حيث يتقاربون فيما بينهم بالانتماء الأيديولوجي والولاء لإسرائيل وكذلك اشتراك معظمهم في نفس المؤسسات بشكل أو بآخر.
- كان معظم هؤلاء إن لم يكن كلهم وراء فكرة الحرب على العراق والمخططين لها بكل تفاصيلها لا من خلال أقوال ونظريات بل من خلال مشروعات وسيناريوهات الإعداد للحرب وما بعد الحرب قدمت إلى صناع القرار وإلى الرأي العالم الأمريكي.

وهذا يجرنا للحديث عن أهم المؤسسات والآليات التي استطاع بها المحافظون الجدد أن يؤثروا على النظام السياسي والجماهير هنا وهناك خاصة في مرحلة ما قبل الحرب على العراق.

*****مؤسسات وآليات المحافظين الجدد:**

من الملفت أن الأمريكيين قد وضعوا قوانينهم السياسية على نحو يسهل لمجموعات الأغلبية أو قوى الضغط أن تؤثر في المجتمع تأثيرا كبيرا بل وتحكمه حكما مطلقا، فهذه القوانين تعطي لهذه المجموعات شرعية الوجود والتأثير على عقول الناس وعلى صناع القرار.

والمتأمـل للذهنيـة الأمريكيـة سـيجد أنهـا أميـل إلى الأخـذ بالمعـاني العامـة والمدركات الكلية مـع الميـل إلى العواطـف أحيانـا، والسـبب أن حيـاتهم في معظمهـا عمليـة معقـدة ومظربـة ونشـيطة في الوقـت ذاتـه، بحيـث لا يـترك نمـط للشـخص الأمريكي- العادي- وقتا للتفكير والدخول في تفاصيل الصورة.

ومـن هنـا بـرزت أهميـة المؤسسـات ومراكـز البحـوث والتـي يطلـق عليهـا Thnk Tink وظهرت أيضا قوة وتأثير وسائل الإعـلام المختلفـة التـي شـكلت عقليـة الناس، ففي حين اهتمت المؤسسات السياسية والمراكز البحثية بمخاطبة النخبـة فقـد اهتمت وسائل الإعـلام بمخاطبـة الجماهـير وفي كـل الأحـوال صـنعت هـذه الوسـائل صنعها في التحكم والتخطيط والتنفيذي أيضا بدلا من الأغلبية.

ولقد تحدثنا سابقا عـن اليمـين المسـيحي المتشـدد داخـل الولايـات المتحـدة الأمريكية ورأينا كيف أنه امتلك من المؤسسات ما جعله يزداد نموا وقوة مع الوقـت، ورأينا كذلك اللوبي اليهودي بما يمتلكه من قدرات ماليـة واجتماعيـة وتعـاطف دينـي وكيف انه وظف هذه القدرات للتغلغل داخل بنية المجتمع حتـى أصـبح مـن أقـوى اللوبيات على الإطلاق.

وقد أكدنا أن تيار المحافظين الجدد يتكـون مـن هـذه التشـكيلة ولهـذا فـإن مؤسسات اليمين المسـيحي واللـوبي اليهـودي تعـد مـن ضـمن مؤسسـات المحـافظين الجدد، لكـن الملاحـظ عـلى أكـثر هـذه المؤسسـات أنهـا تعاطـت مـع الشـأن الـديني والأخلاقي والسياسي ومزجت في عملهـا بـين كـل تلـك القضـايا، أمـا المؤسسـات التـي سنتكلم عنها فهي ذات صبغة سياسية وإعلامية واضحة ومحددة خاصة وأنهـا ألقـت بظلالها على منطقة الشرق الأوسط عموما والملف العراقي على وجه الخصوص.. وقـد تنوعت هذه المؤسسات بين مراكز ذات صلة مباشرة بالإدارة الأمريكية ومراكز بحوث ودراسات وبين وسـائل إعـلام مختلفـة سـيطر عليهـا المحـافظون الجـدد وأهـم هـذه المؤسسات:

1- مجلس سياسة الدفاع Policy Board Defense وهي هيئة مدنية نصف رسـمية تعين من قبل وزير الدفاع كهيئة استشارية للبنتاجون، ويتكون المجلـس مـن سـبعين عضوا معظمهم إن لم يكن كلهم من المحافظين الجدد، وللمجلس اجتماع كل شهر أو

حسبما تملي عليه الظروف، وقد كان يرأسه ريتشارد بيرل إلى أن استقال أثناء الحرب على العراق بسبب فضائح مالية، وكان من أعضاء هذا المجلس جيمس وولسي ـ الذي كان رئيسا للمخابرات الأمريكية، فرانك جامني وإليوت كوهين وهنري كيسنجر وجيمس شليذنجر وكان رئيسا للمخابرات أيضا، وهيوت جنجريتش الذي كان رئيسا للكونجرس وكان قد شكل أيضا في الثمانينات من القرن الماضي مؤسسة مجتمع الفرص المحافظ.

2- مركز السياسات الدفاعية C.S.P: Center For Security Policy ومن مستشاريه إليوت أبرامز الذي سبق وتحدثنا عنه.

3- مشروع القرن الأمريكي الجديد P.N.A.C والذي تأسس عام (1997م) ورئيسه وليم كريستول وقد تكلمنا عنه، ومعه روبرت كاجان والاثنان معروفان بتبنيهما لمواقف اليمين الإسرائيلي ومدى ولائهما لإسرائيل وقد أعد هذا المركز مشروعا لضرب العراق عام (1998م) وسوف نتحدث عنه فيما بعد، وهذا المشروع يعد برنامجا تابعا لمركز دراسات المشروع الأمريكي.

4- مركز دراسات المشروع الأمريكي A.E.I: Amerecan Enter Prise Institute وقد تأسس عام (1943م) ومن أعضائه ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي وريتشارد بيرل.

5- المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي:

Jewish Institute For National JINSA Security Affairs والذي تأسس عام (1976م) وأهم الناطقين باسمه مايكل ليدن صاحب مفهوم الحرب الشاملة ضد الإرهاب ومن أعضائه ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي و ريتشارد بيرل وجيمس وولسي وجين كيرباتريك وأوجين روستوف.. والمعهد يقوم فكره وما ينجزه من مشاريع على أساس تطابق الأمن الأمريكي مع الأمن الإسرائيلي.

6- المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية وفي مجلسه جون دويتش رئيس المخابرات السابق، وبرنت سكوكروفت مستشار الأمن القومي في عهد بوش الأب وهو ممن عاصروا حرب الخليج الثانية عام (1991م) وقد قدم هذا المجلس ورقة إلى رئيس

الـوزراء الإسرائـيلي نتانيـاهو في تـاريخ (1996/6/8م) تؤكـد فيهـا ضرورة أن تـدعم إسرائيل الحرب على العراق وتبين أهميتها لإسرائيل.

7- مكتب الخطط الخاصـة وهـو مكتـب اسـتخباراتي تـابع للبنتـاجون ويرأسـه أبـرام شولسكي وقد استحدث هذا المكتب بعد أحداث (11سبتمبر) وتولى أمر تأسيسـه كـل من بول وولفويتز و دوجلاس فيث الذي تحدثنا عـنهما، وكانـت مهمـة المكتـب هـي التحقيـق في بـرامج أسـلحة الـدمار الشـامل التـي يمتلكهـا النظـام العراقـي السـابق وعلاقاته بتنظيم القاعدة ومعروف أن هذه الادعاءات أصبحت الآن محل شـلك كبـير لدى المجتمع الأمريكي والبريطاني.

8- مركز الدراسات الاسـتراتيجية والدوليـة، ورئيسـه برنـت سـكوكروفت الـذي عمـل مستشارا للأمن القومي، وفي عضوية المركز ديك تشـيني وهـنري كسـينجر وشـليزنجر وقد تأسس المركز في الستينات بجامعة جورج تاون.

9- معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية ومقره واشنطن والقدس ورئيسـه روبـرت لودينر وقد أعد هذا المعهد وثيقة دليل تخطيط الـدفاع في البنتـاجون عـام (1992م) وسيأتي الحديث عنها.

10- مدرسة الدراسات الدولية العليا في جامعـة هـوبكنز S.A.I.S. وقـد أسسـها بـول نسته عام (1944م) الذي يعد أبو اليمين الجديد أو المحافظين الجدد وكان له موقفـه المعروف من التوازن وسياسة الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

11- معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى وهـو أحـد بيـوت الخـبرة للـوبي الإسرائـيلي حيث أوجدته منظمة إيباك اليهوديـة الأمريكيـة وقـد تأسـس عـام (1985م) وخـرج العديد من صفوف ونخب المحافظين الجدد ومنهم اليهودي الأسترالي الموالي لإسرائيـل مارتن أنديك والذي له الفضل في تأسيس هذا المعهد، وخرج منه أيضـا دينـيس روس منسق عملية السلام العربي الإسرائيلي في عهد كلينتون، وقد أصدر المعهد تقريـرا عـن استراتيجية أمريكا للسلام وسوف نتكلم عنه فيما بعد.

12- مؤسسة أمريكان انتربايز انستتيوشن وقد أنشأت عام (1943م) وأسهمت فيها شركة فورد وعدد من رجال الأعمال في الولايات المتحدة ويرأس سم الدراسات فيها دافيد وريمسير وهو يميني متعصب من ضمن المحافظين الجدد.

13- مركز هوفر للدراسات ومن أعضائه دونالد رامسفيلد وزير الدفاع و كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي.

14- مركز فرانك جافني لسياسة الأمن.

15- مركز سياسات الشرق الأوسط التابع لمعهد هدسون وتديره ميراف وريمسير زوجة دافيد وريمسير وقد انضم ريتشارد بيرل إلى مجلس أمناء هذا المركز.

16- منتدى الشرق الأوسط، وتنتمي إليه أيضا ميراف وريمسير.

17- المؤسسة البحثية المتخصصة في الشؤون الأمنية واسمها راند كوربوريشن وهي من كبريات مراكز الفكر السياسي في الولايات المتحدة والتي أعدت تقريرا خصصته عن المملكة العربية السعودية وسيأتي الحديث عنه.

هذه هي أهم المؤسسات التابعة مباشرة لتيار المحافظين الجدد ولعلنا لاحظنا توزع وجود هذا التيار داخل هذه المؤسسات بحيث نجد الشخص الواحد ينتمي إلى أكثر من مؤسسة وقد بدا الأمر أشبه بخيوط عنكبوتية تبسط نفوذها هنا وهناك وإن لم تكن مثل وهن بيت العنكبوت لأن خيوط هذا التيار من مال ونفوذه وشبكة علاقات.

ولاحظنا أيضا أن معظم هؤلاء هم الذين قادوا الحرب على العراق وخططوا لها، وقد حدث ذلك من خلال مشروعات وأفكار ونظريات قدموها من خلال تلك المؤسسات وأهم هذه المشروعات..

*****بعض مشروعات ونظريات المحافظين الجدد:**

سوف نركز هنا على أهم الوثائق والدراسات والمشروعات التي قامت بإعدادها هذه المؤسسات والتي كان بعضها يمثل خطة التعاطي مع الملف العراقي الذي انتهى بالحر والاحتلال وبعضها الآخر يطرح فكرة الهيمنة الأمريكية على العالم:

◆ أصدر معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى تقريرا بعنوان البناء من أجل السلام Building For Peace: An American Strategy For The Middle Eastوقد صدر التقرير عام (1988م) والملفت انه أشار إلى قضية العراق قبل حدوث غزو الكويت بمدة طويلة حيث يقول التقرير يشدد هذا الجهد على الإطاحة بصدام حسين وهو هدف استراتيجي بحد ذاته بالنسبة لإسرائيل كوسيلة لاحتواء طموحات سوريا الإقليمية.

◆ في (3يونيو 1997م) قام مجموعة من المفكرين والسياسيين الذين ينتمون للحزب الجمهوري ومعظمهم من تيار المحافظين الجدد بتوقيع وثيقة أطلقوا عليها وثيقة إعلان المبادئ ومن هؤلاء الذين وقعوا عليها ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وبول وولفويتز وفرانسيس فوكوياما وإليوت أبرامز وإليوت كوهين وقد انطلقت الوثيقة من رؤية نقدية لسياسات الرئيس بيل كلينتون الخارجية وطالبت بعدة أشياء كان منها زيادة نفقات الدفاع والعمل على تحديث وتطوير القوات المسلحة الأمريكية، وفي سبتمبر (2000م) قامت نفس المجموعة بإصدار وثيقة أخرى بعنوان إعادة بناء القوة الدفاعية الأمريكية من أجل قرن جديد وطالبت بنفس الأمور التي طرحت في وثيقة (1997م).

◆ نشر برنامج مشروع القرن الأمريكي الجديد PNAC خطة لضرب العراق بناء على الوثيقة أو الورقة التي أعدها كل من بول وولفويتز نائب وزير الدفاع وزميله و لويس ليبي عام (1992م) والتي تسمى دليل الدفاع الأمريكي أو دليل تخطيط الدفاع في البنتاجون Pentagon Defense Planning Guid ودارت الوثيقة حول مهمة إسقاط النظام العراقي وحول دور إسرائيل وموضوع السلام ورفض اتفاقات أوسلو... وقد نشر مشروع القرن الأمريكي أو الخطة المبنية على وثيقة (92) في يوم (1998/1/26م) وقدمت في مذكرة إلى كلينتون تطالب بالحرب على العراق وقد وقع على المذكرة حوالي أربعين شخصية منهم (كريستول/ تشيني/ ليبي/ رامسفيلد/ وولفويتز/ بيرل/ أبرامز/ أرميتاج..) وأثمرت

هذه المحاولات عن صدور قرار تحرير العراق من الكونجرس في (1998م) وبعدها قام كلينتون بضرب العراق في عملية (ثعلب الصحراء).

- أعدت إدارة بوش الابن وثيقة استراتيجية الأمن القومي في (20سبتمبر) وهي الوثيقة التي تحدد فيما كل إدارة أمريكية نهجها للدفاع عن البلاد، وقد أعد هذه الوثيقة أو التقرير مجموعة ممن ينتمون إلى المحافظين الجدد ومنهم (بول وولفويتز/ جون بولتون/ ستيف كامبون/ إليوت كوهين/ ديفون كروس/ لويس ليبي/ دوف زاخيم..) وقد حددوا في هذا التقرير إيران والعراق وكوريا الشمالية كأهداف أساسية قصيرة الأجل وذلك قبل فترة طويلة من ظهور مصلح محور الشر الذي أطلقه بوش، وهذا التقرير يشبه إلى حد بعيد ما سبقه من تقارير.
- تقرير اعدته المؤسسة البحثية التخصصة في الشؤون الأمنية راند كوربوريشن وقد نشر التقرير في صحيفة (واشنطن بوست) يوم (6أغسطس 2002م) وتم تخصيصه تقريبا للملكة العربية السعودية وأوصت من خلاله بان توضع السعودية على رأس قائمة أعداء الولايات المتحدة، وكان من العبارات الشهيرة التي تضمنها التقرير ما نصه إن (الاستراتيجية الشاملة للولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط يجب أن تركز على العراق باعتباره البؤرة التكتيكية والسعودية كبؤرة استراتيجية ومصر باعتبارها الجائزة) وقد وضع هذا التقرير أمام اللجنة الاستشارية لمجلس سياسة الدفاع الذي كان يرأسه ريتشارد بيرل.

هذه هي أهم الثمار الشيطانية التي أنتجها المحافظن الجدد في الولايات المتحدة والتي ألقت بظلالها على منطقة الشرق الأوسط عموما والعراق بشكل خاص وربما لاحظنا مدى تشابه مثل هذه المشروعات وإلحاح المحافظين الجدد في طرحها وتنفيذها على الإدارة الأمريكية من خلال هذه المؤسسات التي اضطلع بمسئوليتها المحافظون أنفسهم.

وكان لابد لهم خط موازي لهذا الاتجاه وتمثل في وسائل الإعلام التي يمتلكونها أو التي يشرفون عليها ويتحكمون في ما تنشره، حتى تستطيع أن تصل إلى

الرأي العام الأمريكي، وهذا سيجرنا للحديث عن أهم وسائل الإعلام التي تتحرك تحت مظلة المحافظين الجدد.

***وسائل إعلام المحافظين الجدد:**

منذ بدايات التاريخ الأمريكي الحديث ووسائل الإعلام تقوم بدور كبير في تهيئة الرأي العام وتحريك قطاعات كبيرة منه فقد كانت الصحافة والكلمة المكتوبة في البداية هي صاحبة النفوذ والسيطرة ومع التزايد المستمرة أصبح لها رقعة كبيرة في جغرافية الشخصية الأمريكية.

ويكفي أن نعرف أنه في عام (1775م) كان هناك في الولايات المتحدة حوالي أربع وثلاثين جريدة أسبوعية وفي عام (1782م) كان هناك حوالي ثلاثة وأربعون نشرة دورية، ومنذ ظهور الجريدة اليومية الأولى وهي (بنسلفانيا باكت) عام (1784م) والصحف اليومية والمجلات وغيرها من النشرات إضافة إلى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة أصبحت تشكل على نحو كبير ثقافة المجتمع الأمريكي وتحدد اتجاهاته.

وتيار المحافظين الجدد كقوة ضغط له أهدافه ورؤاه ومصالحه رأي ضرورة أن تكون له مؤسساته الإعلامية التي يستطيع من خلالها أن يعبر عن تلك الرؤى ويحقق تلك الأهداف، فهناك مؤسسات إعلامية مثل مركز بحوث الشرق الأوسط الإعلامي ميرمي وقد قام بتأسيس المركز ميراف وريسمير زوجة دافيد وريسمير الذي سبق وتحدثنا عنهما، واشترك معهما في تأسيسه عام (1998م) العقيد الإسرائيلي ييجال كارمون الذي كان رئيسا للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، ومن اللافت أن المركز قد افتتح له فروعا في عدد من عواصم العالم مثل لندن وبرلين والقدس.. إضافة على مقره الرئيسي في واشنطن.

وهناك عدد من المجلات والصحف التابعة لهذا التيار مثل مجلة ويكلي ستاندرد الأسبوعية والتي يرأس تحريرها وليام كريستول وقد تحدثنا عنه، وهذه المجلة تحظى بتمويل إمبراطور الإعلام الأمريكي اليهودي روبرت مردوخ والذي يملك إمبراطور إعلامية مترامية الأطراف حتى خارج الولايات المتحدة تقدر بحوالي مائة

وخمسة وسبعين صحيفة إضافية إلى قناة فوكس الإخبارية وكل هذه الوسائل تتبنى دائما وجهة نظر المحافظين الجدد وخاصة ما يتعلق فيها بمصالح إسرائيل.

والإدارة الأمريكية نفسها تدرك مدى أهمية الإعلام في توجيه الشعوب ولهذا فقد أطلقت في أوائل مايو (2003م) محطة فضائية ناطقة بالعربية وموجهه بالخصوص للعراق يتم إنتاجها من استوديو وشركة جريس ديجيتال ميديا والتي تديرها المليونيرة شيري ريجان وهي مسيحية متعصبة ومؤيدة بشدة لإسرائيل، ولها دور واضح في الترويج لإسرائيل حيث قامت بإنتاج فيلم وثائقي عنوانه (إسرائيل القدر الإلهي) في سبتمبر (2002م) وأشار الفيلم إلى ألوهية إسرائيل ودور الولايات المتحدة في تكريس هذا المفهوم.

***المحافظون الجدد بين المصالح الشخصية والمرجعية الدينية:

على الرغم من تأكيدنا السابق على أن تيار المحافظين الجدد يرتكز في معظم مواقفه وقراراته على إبعاد أيديولوجية وقيم دينية توراتية خاصة في تعاطيه مع الشأن الخارجي حيث تظهر إسرائيل كمحور هام في مرجعية التيار، لكن الأمر لا يتنافى مع وجود تطلعات سياسية ومصالح اقتصادية شخصية لبعض من ينتمون إلى هذا التيار.

ولا يتعارض مبدأ المصلحة الشخصية مع المعتقد الديني لدى كثير من أنصار هذا التيار بل ربما لدى قطاع كبير من الأمريكيين، يقول دي توكفيل في كتابه الديمقراطية في أمريكا: (إن الأمريكيين لا يتبعون دينهم بدافع من المصلحة الشخصية فحسب بل كثيرا ما يجعلون المصالح التي تحفزهم إلى اتباعه من مصالح هذه الدنيا) ويقصد دي توكفيل أن الأمريكيين استطاعوا تطويع فكرة الدين بحيث لا تتعارض كثيرا مع المصلحة أو الفلسفة العامة للمجتمع الأمريكي البراجماتية.

ولعنا نقترب أكثر من الملف العراقي لنرى أي هذه المصالح الشخصية التي حرص عليها بعض المحافظين الجدد من خلال تأزيم الوضع في العراق بالحرب وبالاحتلال، فالعراق بلا شك بلد غني بثرواته ولهذا تسارع بعض هؤلاء للاستفادة من

مقولة إعادة إعمار العراق التي أصبحت الشغل الشاغل للكثير من الفعاليات الاقتصادية الأمريكية والعربية أيضا.

ومن هذه الشركات الأمريكية شركة هليبورتون وشركة بيكتل والأولى متخصصة في خدمات الطاقة وكان يرأسها ديك تشيني نائب الرئيس الحالي ولكنه استقال عندما أصبح مساعدا لبوش الابن في انتخابات الرئاسة عام (2000م) وحتى بعد استقالته استمر تشيني في تلقي مليون دولار أمريكي سنويا من الشركة كجزء من تعويض نهاية الخدمة!! وعمل في هذه الشركة أيضا كمستشار لها ريتشارد أرميتاج الذي يشغل منصب نائب وزير الخارجية.

أما شركة بيكتل فهي إحدى أكبر شركات البناء الأمريكية والتي فازت بعقد تصل قيمته إلى ستمائة وثمانون مليون دولار أمريكي في عملية إعمار العراق حسبما كشفت صحيفة (الفاينانشل تايمز) في (17 إبريل 2003م) وعندما نتأمل مجلس إدارة هذه الشركة سنجد فيه جورج شولتز الذي يعمل في نفس الوقت رئيسا للجنة تحرير العراق.

وعند النظر إلى تلك المنافع التي لم تأت عن طريق المصادفة، وحتى لو صدق ذلك فإننا نؤكد على أن المصالح السياسية والاقتصادية التي حرص على قطف ثمارها تيار المحافظون الجدد لا يتعارض بشكل أو بآخر مع مقولاتهم أو ما يعتقدونه في قضية الحرب على العراق لاسيما وأن إسرائيل ذاتها كما أوضحنا في الفصل الأول لديها مصالح وطموحات سياسية واقتصادية من تداعيات هذه الحرب وما بعدها.

وعلينا قبل أن نفرغ من الحديث عن هذا التيار الذي يحرك جزءا كبيرا من المشهد السياسي الأمريكي أن نتساءل هل كل المجتمع يؤيد هذا التيار؟! ألا يوجد من يعارضه أو يقف ضد توجهاته خاصة في قضية الحرب على العراق؟!

*****تيار الرفض الضعيف للمحافظين الجدد:**

لا يمكن للمتأمل في تركيبة العقلية الأمريكية أن يقصي جانبا التيار الليبرالي الذي وسم التاريخ الأمريكي وجعله يتميز عن غيره، ولا يمكن في الوقت ذاته أن نغفل

هامش الحرية المتسع في النقد والمراجعة بل والتجريح الذي يصل إلى الأمور الشخصية والمالية والأخلاقية.

وحتى تيار المحافظين الجدد القوي كان له معارضوه ومنتقدوه خاصة في علاقتهم القوية بإسرائيل وتداخلهم الواضح مع اللوبي الصهيوني في منتصف الثمانينات بعنوان من يجرؤ على الكلام وقد تحدث فيه عن النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة ماليا وإعلاميا وسياسيا.

لكن هذه الكتابات على الرغم من قوتها وصحة ما تستند إليه تعد قليلة بل ونادرة أحيانا أخرى ولا تستطيع أن تلقى مثل ذلك التأثير الذي تلقاه أفكار المحافظين الجدد سواء من ينتمون إلى اليمين المسيحي المتشدد أو اللوبي الصهيوني.

وصحيح أن هذا التيار له معارضوه ورافضوه من التيارات الليبرالية الأخرى إلا أن واقع الحال أن هؤلاء التوراتيين الجدد أقوى بكثير من التيارات الأخرى المعارضة وتتغلغل أفكارهم داخل مؤسسات فاعلة بداية من الصحافة ووسائل الإعلام ومرورا بالبنتاجون ووزارة الخارجية ووصولا إلى البيت الأبيض، إضافة إلى مؤسسات بحثية تقوم بنشر وترويج أفكارهم ورؤاهم.

ولعل القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو الولاء لإسرائيل ككيان وللتوراة كأيديولوجيا فهم يؤيدون إسرائيل لأسباب دينية في المقام الأول لدرجة تختلط وتتقاطع فيها المواقف والرؤى ما بين الإدارة الأمريكية والإدارة الإسرائيلية، ولدرجة ذهب فيها البعض إلى اعتبار أن حزب الليكود الإسرائيلي هو الذي يحكم أمريكا.. وهذا ينطوي على نحو كبير من الصحة، فإسرائيل هي الفكرة المحورية التي تدور حولها مواقف هؤلاء وآراءهم.

ولهذا يخشى الكثيرون من الذين يعارضون هذا التيار أن يتهموا بالعداء للسامية إن هم تحدثوا علنا عن هذا التيار، وهذا ما أشار إليه الكاتبان بيل وكاتي كريستيسون في مقال نشر بمجلة كاونتر بانس بتاريخ (2003/1/25م) عندما أكدا أن من يحاول- مجرد محاولة- الإشارة على الدور الإسرائيلي في الحرب على العراق فإنه سيتهم بمعاداة السامية يقول الكاتبان كل من يتهور ويلمح إلى أي تحريض

إسرائيلي لإدرار بوش على شن الحرب أو انخراط إسرائيل في التخطيط لها فلابد أن يوصم في مرحلة من المراحل وفي وقت من الأوقات بمعاداة السامية.

فقضايا المصالح الإسرائيلية تمثل عائقا حقيقيا أمام وجود تيار نقدي قوي رافض للمحافظين الجدد، وفي قضية ما بعد الحرب على العراق تحديدا رأينا ما حدث من مراجعة قوية لسياسة بوش الابن وقد طرحت هذه المراجعات في الكونجرس نفسه الذي كان يدعم بوش في الحرب، وطرحت في وسائل الإعلام المختلفة.

لكن الملاحظ على أكثر هذه المراجعات أنها دارت في فلك قضايا محددة مثل ادعاءات بوش وفريقه بشأن تملك العراق لأسلحة دمار شامل أو ما تم صرفه من أموال في هذه الحرب أو أثر المقاومة العراقية على القوات الأمريكية في العراق أو غيرها من القضايا وغيرها مباح فيه الكلام وبعنف لكن الحديث عن إسرائيل بما يسوؤها ويضر مصالح محذور بل وممنوع في كثير من الأوقات.

فقدسية إسرائيل نابعة من قدسية النصوص ومن مرجعية العقيدة، وهنا علينا أن نقترب أكثر من تلك النصوص التي احتوى عليها العهد القديم وشكل خلفية الحرب الدينية والتاريخية.

الفصل الخامس

التوراة ترسم خريطة
العراق الجديدة

*****التوراة ترسم خريطة العراق الجديدة:**

بعيدا عن كل المكاسب السياسية والاقتصادية والمبررات الواقعية والتي كانت بلا أدنى شك محركا فعالا لوجود الدور اليهودي في الحرب على العراق.. فإننا سنذهب بعيدا نستقصي في أوراق التاريخ ونبحث في مبرر آخر وسبب مختلف تجده كامنا في عقول اليهود ومستترا في ذهنية من حركوا آلة الحرب على العراق من المحافظين الجدد، إنه مبرر ينبع من أسفار العهد القديم وثقافة إقصاء الآخر وتدميره التي شكلت على نحو كبير عقلية الغزاة الجدد وتفاعلت مع هذه المبررات السابقة العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية.

فبعد رصد هذه المعطيات التي تفاعلت بشكل دراماتيكي في تلك الأحداث التي عصفت بالعالم الإسلامي بداية من قضية فلسطين القديمة المتجددة، ثم قضايا الحرب على الإرهاب وما تبعها من القضاء على أفغانستان ثم الحرب على العراق ومحاولة القضاء على تاريخ وحضارة هذا البلد العريق ووصولا إلى التلويح بتهديد سوريا والمملكة العربية السعودية.. يبقى التساؤل: أين هي تلك النصوص التوراتية التي حركت هذه التفاعلات وأبرزت تلك المعطيات؟ وكيف نظرت هذه النصوص إلى العراق أرض الرافدين؟

وتبقى هذه التساؤلات مفتوحة ومطروحة سوف نرصدها ونربط من خلال الإجابات عنها بين ما فات وما هو آت.

ولعلنا ونحن نقرأ في سفر أشعياء عندما يؤكد أنه يؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم، لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد وخرابا تخرب الأمم. الإصحاح (60) الفقرة (11) سنعلم أن تلك المبررات قد اختزلت في هذه العبارة وربما في غيرها من نصوص سنأتي عليها، فخراب الأمم التي لا تنقاد للرؤية الصهيوأمريكية وعد إلهي، والحصول على ثروات هذه الأمم وغناها منصوص عليه.

وورد في سفر أشعياء الإصحاح (61) الفقرة (5) والتي تكمل ما سبقها وتقول: ويقف الأجانب يرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم، أما أنتم فتدعون كهنة الرب تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون.

فهاهم يأكلون ثروة الأمم ويتآمرون على زوال حضارات الآخرين، في الوقت الذي يقف فيه بنو الغريب- ربما العرب والمسلمون- يرعون غنمهم ويحرثون لهم الأرض ويهيئون لهم الطريق، ويفتحون لهم الأبواب مرحبين ومهللين.

فمن هم هؤلاء الذين أعادوا صياغة الأسفار القديمة بلون دماء الشهداء ودموع الثكالى في العراق؟! ومن هم هؤلاء الذين حاولوا تدمير تاريخ وثقافة بلاد الرافدين بل تاريخ الإنسانية ثأرا وانتقاما من السبي القديم؟!

*****توراتيون جدد.. لا محافظون جدد:**

كان من الطبيعي لدى اليهود أن يتبنوا التوراة كمرجعية تحرك خططهم وتساند رؤاهم وكما عبر عن ذلك مائير بار إيلان قائلا: إن توراتنا هي أكثر من مجرد لمسات عن الحياة العامة إنها تمدنا بالقوانين التي تنظم وتحكم كل جوانب الحياة، هي بمثابة المرشد للسلوك الواجب على الحكومة أن تنتهجه سواء في المجال الاجتماعي أو في التعامل مع الدول الأخرى.. كيف نشن الحرب عليهم وكيف نعيش معهم في سلام.

ونفس تلك النظرة التي تعلي من أهمية النصوص المقدسة في العهد القديم نجدها عند أكثر تيار اليمين المسيحي الذي ينتمي معظمه إلى البروتستانت، بل والتي تعلي من اليهود أنفسهم على اعتبار أنهم مختارون ومميزون، فهذه الآراء لم تكن بعيدة عما رسخه مارتن لوثر (1483-1546م) مؤسس وزعيم حركة الإصلاح البروتستانتي، فقد ذكر ما هو أكثر من ذلك في كتابه عيسى ولد يهوديا الذي أصدره عام (1523م) وقد ورد فيه (شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريقهم وحدهم- يقصد اليهود- إنهم الأطفال ونحن الضيوف والغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات أسيادها تماما كالمرأة الكنعانية).

ولهذا ليس مستغربا أن تفعل نصوص التوراة فعلها في علاقة اليهود بالآخر (الأغيار) أو (هاغوييم) بل وتبرر إبادة الأمم والشعوب كما ورد في الزبور المائة والتاسع والأربعين (ليصنعوا انتقاما في الأمم وتوبيخات في الشعوب) ولهذا كان من وصايا الرب أن تهلك الأمم التي كانت عقبة في سبيل الهيمنة اليهودية كما ورد في سفر التثنية الإصحاح (20) يقول (ولكن أهلكهم إهلاكا كلهم بحد السيف الحيثي والأموري والكنعاني والفرزي والحوايي واليابوسي كما أوصاك الرب..).

وبالرجوع إلى كثير من نصوص الأسفار ستجدها تتعامل مع الآخر بالنظر إليه على أنه عدو، فصناعة الأعداء والتحذير منهم كانت واحدة من أولويات هذه النصوص، فعلى سبيل المثال سنجد أن اثنين وسبعين مزمورا أي نصف سفر المزامير تقريبا يتحدث عن الأعداء!!

ولقد طفحت التوراة بغير هذه النصوص والمفردات التي تحث على الهلاك والدمار والإبادة والانتقام، وعدم الاكتراث بتاريخ وثقافة غير اليهود، وذلك ما قاله في تبجح واضح المؤرخ التوراتي جورج سميث حيث أكد على أن الثقافة والتاريخ الخاصين بالمجتمعات الأصلية لا يتمتعان بأي أهمية في مقابل التاريخ التوراتي وهذه النظرة تمثل نظرة الأوروبيين جميعا.

وربما نضيف إلى ما قاله سميث من أن هذه النظرة باتت تشكل رؤية أمريكية خالصة تنظر إلى تاريخ الشعوب وثقافتها نظرة دونية مع أنها شعوب أصلية كما عبر سميث، ولهذا لا يجب أن يندهش أحد أو يصدم من تلك الهجمة التدميرية الشرسة على الآثار والمكتبات في العراق بعد دخول القوات الأمريكية إلى بغداد.

*****التاريخ والعهد القديم.. قيادة مشتركة في الحرب على العراق:**

ليس ثمة شكل في أن المفاهيم الدينية (الميثولوجيا) كانت وراء نشوب الكثير من الحروب والصراعات فهي في النهاية عاملا من عوامل تشكيل وعي الزعماء السياسيين والقادة العسكريين الذين تسببوا أو خاضوا هذه الحروب.. لكن هذه المفاهيم

الدينية التوراتية لـدى اليهـود وغـيرهم مـن المحـافظين الجـدد أبعـد مـا تكـون عـن الهامشية إنها أساس الحروب وخلفية السلام.

فقد استطاع هؤلاء المحـافظون أو التوراتيـون الجـدد أن يعسـكروا السياسـة الأمريكية الخارجية، وجعلوا هذه العسكرة تنتمـي إلى أصـول أيديولوجيـة وتوراتيـة، إنهم بمعنى آخر عسكروا نصوص التوراة وأنزلوا عباراته المشحونة بغضب السنين ونار الانتقام وجحيم الثأر إلى أرض الواقـع.. فلقـد حـاصروا بابـل التـي حـاصرتهم ودمـروا هيكلها كما دمرت هيكلهم وسبوا أبناءها كما سبت أبناءهم.

فلم تكن الصدمة والرعـب شـعار حملـتهم إلا واحـدة مـن تـرجمات فعليـة لعبارات العهد القديم الممزوجة بدعوات الـدمار والهـلاك، فقـد ورد في سـفر التثنيـة الإصحاح الثاني الفقرة (25) في هذا اليوم ابتدئ اجعل خشـيتك وخوفـك أمـام وجـوه الشعب تحت كل السماء، الذين يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك.

فقد أخذت هذه الفلسفة لتحرك تلك الخطة التي أطلقت عليها إدارة بـوش الابن الصدمة والرعب Shock and Awe وكانـت الفكـرة والاسـم مـن نحـت الخبـير الأمريكي اليهودي المعاصر هارلان أولمان الذي كان أسـتاذا للعلـوم السياسـية في كليـة الدفاع الوطني حيث أصدر كتابا بعنوان (الصدمة والعرب.. تحقيق الهيمنة السريعة) وهذا الكتاب صدر في عام (1996م) وقد تلقفته الإدارة الأمريكية الحالية خاصـة وأن المؤلف يعمل مستشارا في البيت الأبيض ولهذا أولته الإدارة اهتمامها وبلورت ما جـاء في هذا الكتاب الذي هو صدى فلسفة التوراة.

وفلسفة التوراة وكثير من أسفار العهد القديم قائمة على العنـف والعنصريـة والإقصاء للآخر وهي منسـجمة مـع الجغرافيـا التـي تطرحهـا التـوراة لشـعب اللــه المختـار، فالمسـاران متوازيـان معـا العنـف وفـرض جغرافيـا جديـدة تناسـب الأحـلام القديمة.. ومن هنا ظهر اسم حاولوا أن يكسبوها عراقة وأصالة من التـاريخ، واحترامـا وقداسة من العقيدة، وهيمنة وسيطرة من الحرب.

فالتاريخ اليهودي يبدأ في بلاد الرافدين- هكذا هي معالم بداياته في الذهنيـة اليهودية- فمنذ ظهور إبراهيم عليه السلام في أور الكلدانيين وهجرته إلى حاران ثم

إلى أرض كنعان، اعتبر اليهود تلك الرحلات هي البداية الحقيقية للتاريخ اليهودي بعد أن وسموا بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الفرات أو لأنهم عبروا نهر الأردن.

هذا ما اشتغلت به كثير من عبارات سفر التكوين كما ورد في التوراة، فالبداية لديهم من هذه النقطة، وهي محاولة واضحة لتعميق انتماء وتجذر العبرانيين التارخي ووصلهم بعصور سحيقة، وذلك على الرغم من مخالفة هذا الاعتقاد لما توصل إليه التاريخ والآثار المكتشفة.

فقد أكدت الكثير من الدراسات على أن العبرانيين كانوا قوما رحلا شبه بدو وكان يطلق عليهم اسم خبيرو أو خبيري Khabiri وأيا كانت نقطة انطلاق هذه الأقوام أو موطنهم الأصلي الذي يرجح البعض أنه شبه الجزيرة العربية، إلا أن المهم أن وفادتهم على أرض الرافدين (العراق) كانت في الربع الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد.. وأنهم اتسموا بالبداوة ولم يتميزوا بأي عنصر حضاري يذكر حيث كانوا عالة على غيرهم من الأقوام الأخرى في أكثر إن لم يكن كل السمات الحضارية.

لكن حاولوا الاتكاء على نبوة إبراهيم عليه السلام واعتباره منطلق للتاريخ اليهودي، وهذا الاعتقاد يخالف تماما النظرة الإسلامية حيث نفت كثير من آيات القرآن الكريم انتماء إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية يقول تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ۞ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

ولسنا هنا في مقام تفنيد الدعاوي اليهودية في بداية تاريخهم فلذلك موضع آخر، ولكننا أردنا التدليل على ذلك الارتباط العقائدي والتاريخي والجغرافي بين أرض الرافدين وبين اليهود كما يرون هم أنفسهم.

وعلينا هنا التأكيد على ارتباط هؤلاء بثلاث مناطق عربية وإسلامية ارتباطا توراتيا، وتاريخيا، وتقع فلسطين أرض الميعاد في أعلى مراتب الاهتمام ومعها بلاد الشام عموما، ثم تقع مصر أرض الخروج في مرتبة بعدها وربما مساوية لما سبقها، وتليها العراق أرض البدايات وأرض السبي وعذابات بابل.

وقد ورد في المزمور (80) الكتاب الثالث صورة- أدبية- لكرمة كبيرة غرسها اللـه تمتد فروعها إلى الجبال وتبلغ أرز لبنان في الشمال والمتوسط غربا ونهر الفرات شرقا!!

وربما نعجب إذا علمنا أن لليهود أطماعهم واهتمامهم ببقاع أخرى في عالمنا العربي والإسلامي فلهم إرث تاريخي- على حد زعمهم- في شبه الجزيرة العربية في يثرب وتيماء وفدك ووادي القرى وخيبر، واشتغل بعض مفكريهم على المطالبة بضم بعض المناطق التي يرون أنها جزء من تاريخهم.

فقد أصدر آرثر روبين كتابا عام (1919م) بعنوان (بناء أرض إسرائيل) عمد فيه إلى رسم الحدود التاريخية والطبيعية والاقتصادية لأرض فلسطين حيث يقول: تفرض علينا وجهة النظر التاريخية ضم كل من مؤاب وعمون القديمتين واللتين كانتا في ما مضى جزءا من الدولة اليهودية ومن المعروف أن ممالك عمون ومؤاب قامتا في شرق نهر الأردن، ولهذا طالب أحد أعضاء الكنيست الإسرائيلي مؤخرا بضم الأردن نفسها إلى الكيان الإسرائيلي!!

وعندما نتأمل تلك الإشارات التي وردت في أسفار العهد القديم عن العراق أرض الرافدين وبلاد ما بين النهرين سنجد أنها بدأت من العبارات الأولى التي تتحدث عن بداية الخلق وبداية الكون وقصة آدم عليه السلام وصولا إلى يعقوب عليه السلام، فقد ورد في سفر التكوين وهو السفر الأول من أسفار التوراة ويسمى أحيانا سفر الخلق أو الخليقة.

حيث ذكر الإصحاح الثاني من هذا السفر ونهر يخرج من عدن فيسقي الجنان ومن ثم يفترق فيصير أربعة أرؤس اسم أحدها النيل.. واسم الثاني جيحان.. واسم الثالث الدجلة.. واسم الرابع الفرات[12].

والعبارة تعني أن نهرا يخرج من جنات عدن التي أسكن اللـه فيها آدم عليه السلام ثم يتفرع هذا النهر إلى أربعة هم النيل في مصر ونهر جيحان وهو في بلاد الشام ونهر دجلة ونهر الفرات وهما في العراق، وإن كانت بعض النسخ الحديثة من العهد القديم تسقط اسم النيل من هذه الأنهر الأربعة إلا أن ابن حزم الأندلسي قد أشار

إليها في ما أتيح إليه من نسخ من التوراة وذلك في كتابه (الفصل في الأهواء والملل والنحل).

وفي إشارة أخرى وردت في سفر التكوين تتحدث عن الأنساب والأحفاد الذين ينتسبون إلى سام بن نوح وتشير إلى رحلة إبراهيم عليه السلام، يقول الإصحاح الحادي عشر الفقرة (27-32) وهذه مواليد تارح، ولد تارح إبرام وناحور وهاران، وولد هاران لوطا، ومات هاران في أرض ميلاده في أور الكلدانيين.. فأخذ تارح إبرام ابنه ولوطا بن هاران وساراي كنته امرأة إبرام وخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان.

لكن أخطر وأهم إشارة وردت في سفر التكوين عن بلاد الرافدين هي ما ارتبط بما أطلق عليه فكرة أرض الميعاد التي تمثلت في ذلك الوعد الذي قطعه الرب مع إبراهيم عليه السلام، فقد ورد في الإصحاح الخامس عشر- الفقرة (18) في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر- إلى النهر الكبير نهر الفرات.

وقد اعتبرت هذه العبارة وذلك الوعد والميثاق واحدا من أبجديات العمل الصهيوني الحديث وصولا إلى قيام الكيان الإسرائيلي ومازال يطرح بنفس القوة لدى اليهود ولدى قطاع كبير ممن يطلق عليهم الصهيونية المسيحية.

ولهذا أخذت العراق مساحة كبيرة من حيز الجغرافيا اليهودية، إضافة إلى الاهتمام التاريخي والتوراتي بها، بحيث التحم تاريخ اليهود بتاريخ بلاد الرافدين القديم وشكلا معا وفقا للرؤية اليهودية صورة من أهم الصورة بقاء ورسوخا وهي تلك الصراعات التي حدثت بين الإمبراطوريات المتعاقبة في أرض العراق خاصة الآشورية والبابلية وبين اليهود في فلسطين انتهاء بتحطيم الهيكل والسبي البابلي.

*****حوادث آشور وما قبل بابل:**

كانت العراق مثلها مثل ممالك وبلاد عرفت الحضارة تسمى بأسماء الأقوام الذين كونوا فيها حضارتهم فكان يطلق عليها أحيانا أرض السومريين عندما كانت

الحضارة السومرية تفرض نفوذها على البلاد، أو تسمى أحيانا بلاد الآشوريين أو البابليين.. وهؤلاء الأقوام في الأصل قبائل عربية نزحت إلى هناك وكونت ممالكها وحضاراتها، على أن الاسم الثابت للعراق قديما كان بلاد الرافدين وبلاد ما بين النهرين Mesopotamia، فالعراق كان الاسم العربي الذي أطلق على هذه البلاد.

وفي الوقت الذي انقسم فيه اليهود إلى مملكتين بعد موت سليمان عليه السلام في عام (935ق.م) على وجه التقريب أحدهما مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم والثانية مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة كانت الإمبراطورية الآشورية تبسط نفوذها على بلاد ما بين النهرين.

وهنا علينا الإشارة إلى قضية غاية في الخطورة، فقد يتوهم البعض أن وجود هاتين المملكتين اليهوديتين يعطي لليهود ما يسمى بالحق التاريخي، على اعتبار أنه كان لهم تواجد في شكل دول وممالك، حتى أن بعض مؤرخيهم وبعض المؤرخين العرب- للأسف- يذهبون إلى أن مملكة يهوذا على سبيل المثال قد استمرت إلى أكثر من قرن من الزمان، وذلك يمنحهم حق المطالبة بإرث هاتين المملكتين.

وعلى الرغم من أن قضية الحق التاريخي لليهود في فلسطين ليست موضوعا هنا فلذلك موضع آخر إلا أننا سنوجز الرد على ذلك في ثلاث نقاط، الأولى أن هناك أقواما وممالك عديدة كانت موجودة في فلسطين قبل ظهور العبرانيين بفترات طويلة وقد أقرت بذل كثير من نصوص التوراة نفسها ومنها على سبيل المثال ما ورد في سفر الخروج الإصحاح الثالث وقلت إني أصعدكم من استعباد أهل مصر- إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوايين واليابوسيين إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوايين واليابوسيين إلى الأرض التي تجري لبنا وعسلا.

وورد كذلك في سفر التكوين الإصحاح (13) الفقرة (7) والكنعانيون والفرزيون حينئذ مقيمون في البلد إلى غير ذلك من نصوص تقر بوجود هذه الأمم والممالك قبل ظهور هؤلاء العبرانيين، والأمر الثاني أنه حتى بعد تكوين المملكتين

اليهوديتين يهوذا وإسرائيل لم تكن هناك سمات حضارية تذكر يختص بها هـؤلاء فقـد كانوا عالة على بقية الأمم في كل خصائص حياتهم حتى في أسماء الآلهة التي عبدوها.

والأمر الثالث أن وجود هاتين المملكتين كـان وجـودا شـكليا فقـد خضـعتا في معظم أحوالها إلى نفوذ الإمبراطوريات والممالـك المجـاورة في مصرـ أو في آشـور أو في بابل أو فارس.. ولهذا لم تمارس مملكتي يهوذا وإسرائيل نوعا من الاسـتقلال الحقيقـي بل كان يحدث دائما تحالفات وصلت إلى حد التبعية المطلقـة للقـوى المجـاورة التـي اعتبرت بمثابة الدول الحامية لهذه الممالك الصغيرة والضعيفة.

فقد أعلنت مملكة يهوذا التبعية للقوة الآشورية ولهذا اتسمت بالإذعان بـل وصلت إلى حد التمازج والتماهي الديني والتساهل والاختلاط الاجتماعي، ولا شك أن اليهود حاولوا الخروج عن هذا التحالف والوقوف ضد الآشوريين لكنهم فشلوا فلهـذا أقـروا بالتبعيـة لملـك آشـور، وذلـك مـا ورد في سـفر الملـوك الثـاني الإصـحاح (16) الفقـرة (8-10)، واقـترن بهـذه التبعيـة مظـاهر اجتماعيـة ودينيـة وصـلت إلى حـد التساهل في العبادات التي كانت غريبة على اليهود أنفسهم كـما ورد في سـفر الملـوك الثاني الإصحاح (16) الفقرة (10-20).

وعندما كـان يحـدث في فـترات مختلفـة خـروج هـاتين المملكتـين عـن هـذه التحالفات كان من الطبيعي أن يطرأ على الموقـف صـدام وصراع ينتهـي دائمـا بـزوال هاتين المملكتين من الوجود، وقد حدث ذلك في علاقات الإمبراطوريـات التـي ظهـرت في أرض الرافدين وبين المملكتين اليهوديتين.

ففي عهد الإمبراطورية الآشورية Assyrians استطاع عدد مـن ملـوك آشـور أن يبسطوا سيطرتهم على مملكـة إسرائيـل، ومـنهم الملـك شليمنصرـ الثالـث وبعـض الروايات خاصة التوراة تسميه شَلْمَنْأسَر الذي حكم من (726-722ق.م) حيث سيطر على مملكة إسرائيل بعد حصـارها لمـدة ثـلاث سـنوات وفـرض عليهـا ضرائـب ثقيلـة وباهظة، وذلك حوالي عام (722ق.م) وقبض على هوشع ملك بني وسبي بعضـهم إلى آشور وهذا ما ورد في سفر الملوك الثاني الإصحاح (17) الفقرة (3).

على أن أشهر هؤلاء الملوك الذين احتكوا بمملكة إسرائيل الملك الآشوري سرجون الثاني الذي استمرت فترة حكمه من (721-705ق.م) حيث استطاع أن يزيل مملكة إسرائيل من الوجود ويقضي عليها بشكل نهائي في عام (721ق.م) وأن يشتت أسباطها بل ويأخذ عددا منهم سبيا إلى آشور، وقد ورد ذلك في سفر الملوك الثاني الإصحاح السابع عشر الفقرة (9).

وهذا ما فعله ابنه الملك الآشوري سنحاريب مع المملكة الأخرى يهوذا حيث امتدت فترة حكمه من (704-681ق.م) وحاصر أورشليم عاصمة مملكة يهوذا وهاجمها، وأخضعها لحكمه وقدم له حزقيا ملك يهوذا وقائدهم العظمي الولاء والطاعة، وقد وردت إشارات إلى ذلك في سفر الملوك الثاني الإصحاح (18) الفقرة (17-19) وسفر أشعيا الإصحاح (36) الفقرة من (1-37) وتحدث عن ذلك أيضا هيرودوت في تاريخه.

وقد قدمت التوراة في سفر إشعياء الإصحاح الأول الفقرة (11) نبوءة الأشعياء الذي كان معاصرا لهذه الأحداث تنبأ فيها بما حدث في عهد الملك الآشوري سنحاريب وبأن الله سيعاقب أورشليم على آثامها.

وهكذا احتفظت الذاكرة اليهودية بهذه الفترات من الصراع والتدمير الذي أزال إحدى المملكتين كل من ضايق شعب الله المختار كما في المزمور (129) من الكتاب الخامس حيث الدعاء لأجل سقوط جميع من آذوا شعب الله المختار وضايقوه.

لكن الأحداث الكبرى التي عجلت بزوال مملكتهم الثانية تتابعت فصولها في عهد الإمبراطور البابلية.. وزادت دواعي الثأر ومبررات الحقد والأسى على ضياع ما كان واستحضار ما سيأتي في الغد.

*****ترانيم الثأر اليهودي على أبواب بابل:**

لم يتبق من الوجود اليهودي سوى أشلاء من مملكة يهوذا التي جاءت الإمبراطورية البابلية لتقضي على ما تبقى منها ليزول وجودهم ويتشتت شملهم، ولقد ازدهرت الإمبراطورية البابلية Babylonians في فترتين، الأولى حوالي ألفي سنة قبل

الميلاد وظهر من ملوكهم حمورابي Hammurabi الذي اشتهر بمجموعة قوانين عرفت باسمه وذلك حوالي (1700ق.م) ثم سيطر الآشوريون على الإمبراطورية البابلية، ولكنهم يعودون مرة أخرى للظهور بعد سحق الجيش الآشوري وذلك في حوالي (612ق.م) وتلوح في الأفق حضارتهم ومدنهم وتقدمهم.

وفي هذه الفترة البابلية الثانية ظهرت شخصية أخرى أثارت ومازالت تثير الجدل والسخط لدى اليهود وهي شخصية نبوخذ نصر- الثاني أو بختنصر- Nebuchadnezzar والذي امتدت فترة حكمه من (605- 563 ق.م) وقد وصلت الإمبراطورية البابلية في عهده إلى مراحل عظيمة من الحضارة وامتداد السيطرة والنفوذ، وقد كان يباهي بهذه الحضارة كما ورد في سفر دانيال الإصحاح الرابع الفقرة (30) يقول نبوخذ نصر (أليست هذه بابل العظيمة التي بنيت).

وقد حدث في عهده عدة حوادث ترسخت في التاريخ اليهودي ولعل أهمها ما عرف بالسبي البابلي، وقد تم ذلك على مرتين الأولى في عام (597 ق.م) عندما أخذ نبوخذ نصر عددا منهم إلى بابل وأخضع مملكة يهوذا إلى حكمه وهذا ما عرف بالسبى البابلي الأول، لكن اليهود حاولوا التمرد على سلطة بابل مما دفع نبوخذ نصر إلى محاصرة أورشليم ثمانية عشر شهرا وتفاقمت المجاعات في المملكة ثم فتحها عام (586 ق.م) وسبى أعداد كبيرة من سكان أورشليم إلى بابل وهو ما عرف بالسبي البابلي الثاني وحطم الهيكل وأحرقه وأنهى بذلك مملكة يهوذا إلى الأبد.

وهنا لابد من الإشارة إلى قضية تحطيم الهيكل، فربما يوهمنا ذلك الاصطلاح بأنه كانت ثمة حضارة يهودية راسخة، لكن هذا الهيكل الذي بناه داود عليه السلام والذي يستمسك به اليهود كرمز لحضارتهم -المفترضة- لم يكن هذا الهيكل نمطا معماريا فريدا يدل على نبوغ حضاري، فهو في حقيقة الأمر قد بني على أنقاض معبد آخر كان موجودا لليبوسيين من قبل وهم من الشعوب التي سكنت فلسطين.

وحتى الإضافات المعمارية التي طرأت على الهيكل في عهد سليمان عليه السلام كانت بتأثير من الحضارات المجاورة، بل إن الذين قاموا ببنائه في عهد سليمان كانوا من بناة الكنعانيين (الفينيقيين) وليسوا من اليهود أنفسهم!!

وقد أشارت العديد من أسفار العهد القديم إلى تلك الأحداث التي تعاقبت على مملكة يهوذا في عهد نبوخذ نصر، فقد ورد في سفر الأخبار الثاني الإصحاح (36) الفقرة (17) صعد نبوخذ نصر ملك بابل إلى أورشليم.. وسبى الذين بقوا من اليهود إلى بابل وورد وصف هذه الأحداث في عدد غير قليل من الأسفار مثل سفر أشعياء وسفر حزقيال الإصحاح (17و29) وسفر إرميا الإصحاح (30 و52) وفي هذا السفر وردت نبوءات إرميا، وكذلك تحدث سفر الملوك الثاني الإصحاح (25) وما يليه عن أحداث السبي وكذلك سفر عزرا الذي دارت معظم عباراته ما بين بابل وأورشليم.

وتعرض المزمور (79) من الكتاب الثالث إلى الخراب الذي لحق بأورشليم عندما سقطت على يد البابليين، فالشعب يدعوا الله كي يغفر له ويعينه ويهلك العدو الوثني.

وأشارت بعض هذه النصوص إلى أن عددا من أنبياء اليهود قد تنبأ بهذه الأحداث فقد قال إشعياء لحزقيا اسمع كلام الرب ها أيام تأتي ينقل فيها إلى بابل كل ما في قصرك وما ادخره أسلافك إلى هذا اليوم ولا يبقى منها شيء يقول الرب، ويسبى بعض أبناءك الخارجين من صلبك ليكونوا خصيانا في قصر ملك بابل.

والملفت للنظر أن أعدادا كبيرة من اليهود الذين سبوا ونقلوا إلى بابل آثروا البقاء بها ورفضوا العودة إلى أورشليم وذلك لخصب بابل وغناها، وقد حاول بعض أبنياءهم مثل حزقيال وإرميا أن يهونوا عليهم من أمر السبي والنفي لأنهم توقعوا أن يطول كثيرا حيث توقع إرميا أن يدوم السبي لمدة سبعين عاما وبعدها يعودون.

ولهذا فعلى المنفيين أن يصبروا ويستوطنوا هذه البلاد وذلك ما ورد في سفر إرميا الإصحاح (29) الفقرة (5-7) (ابنوا بيوتا واسكنوها اغرسوا جنات وكلوا من ثمارها اتخذوا نساء ولدوا بنين وبنات واتخذوا لبنيكم نساء واجعلوا بناتكم لرجال، وليلدن بنين بنات واطلبوا سلام المدينة التي أجلبتم إليها وصلوا من أجلها إلى يهوه بسلامها يكون لكم سلام).

فمنطق المداهنة وقت الضعف كان المنطق الذي استحوذ على المنفيين والمسبيين إلى بابل وهو ما أصبح خصيصة بنيوية في الشخصية اليهودية لازمتها في

كل مراحلها التاريخية، وذلك حتى يستقوا وتتعاظم نفوذهم وهنا يتحول النص إلى بدمارها يكون لكم سلام فعندما كان اليهود ضعفاء مسبيين في بابل اشتغلوا بالتجارة والإدارة العليا وجمعوا ثروات، ويصف لنا سفر دانيال كيف أن النبي دانيال أحد السبايا في عهد نبوخذ نصر قد احتل مرتبة عظيمة في مملكة بابل حتى صار رئيسا على جميع حكماء بابل بل وسمى نفسه باسم بابلي وظهرت قدرته على التنبؤ، فهو واحد من الذين تنبئوا بزوال بابل واستيلاء فارس عليها.

ومع احتفاظ اليهود المنفيين بخصائصهم الاجتماعية والدينية إلا أنهم استفادوا وتعلموا وأخذوا من حضارة الإمبراطورية البابلية، ولهذا تحتفظ الذاكرة اليهودية عبر التوراة وأسفار العهد القديم بوصف حياة المسبيين في المنفى وكيف أنهم أوتوا حظا وافرا من المال والتجارة والجاه.

وفي الوقت الذي انخرط فيه المسبيون والمنفيون في الحياة ببابل كان هناك نوع من الحنين إلى أورشليم ومن هنا ظهرت أسطورة الأرض الموعودة مقترنة برغبة قوية في الثأر من هؤلاء الذين بددوا حلمهم وهدموا هنكلهم وأزالوا ملكهم يقول المزمور (137) من الكتاب الخامس والمزمور يعد مرثية للمسبيين في بابل، الذين يتذكرون خراب مدينتهم ويدعون طالبين معاقبلة غزاتهم:

((على أنها بابل هناك جلسنا بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون
لأنها هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة، ومعذبونا سألونا فرحا
قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون كيف نرنم ترنيمة الرب
في أرض غريبة إن نسيتك يا أورشليم تنسى يميني ليلتصق
لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي
يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا
طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الحجارة))

إنها ترنيمة الثأر والانتقام التي تحرك العقلية اليهودية وهـي مبثوثـة في غـير موضع من العهد القديم فبالإضافة على هذه المزامير والتي هي كتاب تراتيل نجـد في سـفر أشـعياء الإصـحاح (47) الفقـرة (1) الحـديث عـن بابـل (الابنـة العـذراء) ابنـة الكلدانيين التي لم ترحم غيرها ولهذا لن ترحم هي أيضا.

*****مرحلة ما بعد دمار بابل هناك.. وما بعد العدوان هنا:**

انتهت فترة السبي وآذنـت الأحـداث بخـراب بابـل وانـتقم اليهـود لنفسـهم هناك وأفرزت تلك المرحلة عدة أمور: كان أولهما ذلك البعد النفسي- الـذي ترسـخ في الذهنيـة اليهوديـة مـن وقتهـا إلى الآن والرغبـة في الانتقـام ممـن دمـروا المملكتـين والهيكل والحلم وثـانيهما ظهـور قصـة الأرض الموعـودة بعـد السـبي وحلـم العـودة وإعادة بناء الهيكل.

وقـد اشـتغلت بعـض نصـوص العهـد القـديم في تأكيـد تنبؤهـا بـدمار بابـل وخرابها كما ورد في سفر إرميا الإصحاح الرابع الفقرة من (5-31) فقـد أشـار إرميـا في نبأته إلى أن عهدا جديدا سيحل على اليهود بعد تلك الكارثـة المحتومـة التـي سـتحل ببابل.. فإن الـلـه سيعاقب بابل لتدميرها أورشليم وسبي شعب الـلـه المختار، وكذلك تنبأ حزقيال وقد تحققت هذه النبوءات كما يرى اليهـود في (539 ق.م) عنـدما ظهـر كورش الفارسي وقضى عـلى الإمبراطوريـة البابليـة. وبظهـور شخصـية كـورش الفـارسي تغيرت موازين القوى لصالح اليهود الذين تحالفوا معه واستطاع أن يعيـد اليهـود إلى فلسطين بداية من عام (537 ق.م) بعد قضائه على الإمبراطوريـة البابليـة عـام (539 ق.م). وقد أسبغت التوراة على شخصية كورش أوصافاً عديـدة أنزلتـه منزلـة الأبطـال بل اجتهدت في وصفه بأنه المخلص والمسيح المنتظـر، وهـذا مـا ورد في سـفر أشـعياء الإصحاح (45) (هكذا يقول الرب لمسـيحه كـورش) ووكـل الـرب لكـورش مهمـة بنـاء أورشليم وتأسيس الهيكـل يقـول سـفر أشـعياء الإصـحاح (45) (وهـو يبنـي مـدينتي ويطلق سبيتي لا بثمن ولا بهدية قـال رب الجنـود). وربمـا لا نسـتغرب مـن موقـف كورش الفارسي ووقوفه بجانب اليهود إذا علمنا أن نسبه يعود إلى اليهود مـن ناحيـة أمه استير وبالتالي تحقق ولاؤه لبني إسرائيل، وهناك سبب آخـر وهـو سـبب سـياسي يتمثل في رغبة كورش في امتداد

نفوذه وسيطرته لتشمل فلسطين لمواجهة المد المصري ولهذا كسب ود اليهود وأعدهم وساعدهم في بناء حصون أورشليم وفي إعادة بناء الهيكل. فسقوط بابل وظهور كورش كانا حسب العقدية اليهودية تحقيقا لوعد الرب وتصديقا لنبوءات الأنبياء ومنهم أشعياء الذي رأى أن الله سيرتب في آخر الزمان من الفرس خداما لبيته ويعني به كورش الفاسي. وقد أشار ابن حزم الأندلسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل إلى أن ظهور كورش وقيامه بهذا الدور يعد نسخا في التوراة نفسها لأنها توجب أن يخدم في البيت المقدس أحد غير بني لاوي بن يعقوب على حسب مراتبهم في الخدمة فعلى أي وجه أنزلوا هذا القول من أشعيا. ونحن لا نستغرب كما استغرب ابن حزم من لجوء اليهود إلى كورش أو غير كورش في القضاء على أعدائهم وتحقيق حلمهم، لأن ذلك ما شهدناه في الوقت الراهن من ظهور كورش الجديد ممثلا في بوش الابن الذي قضى على إرث مملكة آشور وبابل وانتقم من أحفادهم ضمانا لأمن وبقاء ووجود إسرائيل. ويبقى هنا التساؤل مطروحا: إذا كانت مرحلة انتهاء السبي البابلي والعودة إلى فلسطين قد ارتبطت بزوال وتحطيم الإمبراطورية البابلية وحلول عهد جديد كما تنبأ إرميا قديما، فهل بدأت مرحلة جديدة من مراحل العمل اليهودي في إسرائيل بعد تحطيم الكيان السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي للعراق وبعد العدوان الأخير كما تنبأ بذلك آرييل شارون عندما وصف الحرب على العراق بأنها بداية عهد جديد؟!!

ويبدو أن التاريخ القديم بنصوصه المقدسة وأساطيره ومفرداته أصبح يسيطر على المشهد الراهن ولهذا لم يكن مستغربا أن يهدي بوش الابن إلى صديقه شارون خريطة للأراضي المقدسة تعود إلى عام (1678م) وتشمل عددا من دول المنطقة ومنها بابل العراق الحديثة، وذلك ما نشرته جريدة (يديعوت أحرونوت) الإسرائيلية بتاريخ (2003/7/30م) وهو ما جعل شارون يشكر صديقه ويقول يمكنني أن أؤكد لكم سيدي الرئيس أن هذه الخريطة كانت ستحصل على موافقة حكومتي من دون مشكلة.

وهذه الثقة الكاملة التي طرحها شارون في أن حكومته قادرة على تنفيذ ورسم معالم هذه الخريطة ربما تجعلنا نعيد النظر في إمكاناتنا وقدراتنا وعلى ضرورة صياغة مشروع عربي وإسلامي جديد يتواءم مع تلك المتغيرات.

***رؤية أخيرة:

***الفكر العربي في مرحلة ما بعد الحرب:

بعد تبدد السحب التي كانت تحجب الرؤى وذلك الغبار الذي أثارته آلة الحرب وبعد انزياح الانكسارات أو بعضها على الأقل علينا أن نسأل أنفسنا من المهزوم في تلك الحرب التي دارت في العراق؟وهو تساؤل ربما راوغنا في الإجابة عليه من تلك الغصة التي ملأت حلوقنا وتلك المرارة التي سيطرت علي نفوسنا.. وربما نعرف في حقيقة الأمر من الذي انتصر لكننا نجهل ونتعامى عن المهزوم والخاسر في تلك المعركة.

لقد أفقدتنا الصدمة وكثير من الرعب فرصة الوقوف أمام الذات اختبأت وراء المشاهدة والتتبع لأحداث تدور ولا تملك أن توقفها أو حتى تفهم خلفياتها، ولست أبالغ إذا قلت إن الخاسر في حرب العراق لم يكن نظاما عربيا بقدر ما كان فكرا عربيا بكل تجلياته.

إنه فكر أخرج النظام البائد من رحمه، ثم أوجد النظام القائم من وهنه، فما عاد البكاء على ما فات يجدي ولا الحسرة على ما هو آت يفيد.

وليست تلك دعوة لليأس والقنوط بل هي إقرار بواقع الحال ووصف لطبيعة المآل، فعندما ننظر إلى منظومة الفكر العربي بفلسفته وتربيته وأدبه وإبداعاته.. سنجد أنه تراجع- كسلاح في معركة الوجود- إلى مجرد ترف فكري أحيانا أو إلى نظريات ورؤى مغرقة في التغريب والغرابة معا.

فالفلسفة العربية التي من المفترض أن تتعاطى مع الماورائيات باتت تحتضن السطوح والقشور وانشغلت بقضايا أبعد ما تكون عن مجريات الأمور، حتى اقتصرت الفلسفة على الدرس الأكاديمي دون خروجها من أروقة الجامعات إلى أرصفة الشوارع.

على الرغم من أن الفلسفة عموما كانت نتاجا لفهم الواقع وما وراءه والبحث عن حقيقة الأشياء، وهذا ما حاولت أن تخرج به فلسفات غربية كثيرة بعد أحداث عصفت بأوروبا وأمريكا في أعقاب الحربين العالميتين السابقتين، وليس ذلك معناه الموافقة على ما طرحته أكثر هذه الفلسفات كالوجودية أو البراجماتية.. بل إن معناه مطالبة العقل العربي بالبحث عن فلسفة يصوغها ويجدد بها ذاته ويخطط بها لغده.

ولسنا هنا نطالب أن تغرق الفلسفة في بحث الطبيعيات والإلهيات من جديد، أو أن تستغرق في قضايا لاهوتية وجدلية تجعلنا ندور في دائرة مغلقة، ولكننا نطالب بفلسفة عربية تجمع أشتات ما تفرق من رؤى وتنظر لما ضاع من آمال.

والتربية العربية هي الأخرى حددت نطاقها في ذلك النوع المدرسي أو ما يشاع من أنماط التربية الأسرية وانشغلت بتربية الفرد وفق نهج محدود عن تربية الأمة وفق نهج مقصود، ولهذا سرعان ما ضربت الأمة في مقتل من هول ما رأت لأنها لم تتهيأ وأصيب توازنها بخلل لأنها لم تستعد.

وربما كان البعد الديني الإسلامي كواحد من أبعاد التربية العربية مغيبا عن قصد ومحاربا عن عمد مع أنه كان المؤهل ليقود الأمة في لحظات الحلكة التي أحاطتها والظلمة التي شملتها، فغاب من فقهنا المعاصر ما يمكن أن نسميه فقه الكوارث والانتكاسات الذي يسلح الأمة بإيمانها ويجعلها تعالج قصورها.

بل الأخطر من ذلك أن البعد الإسلامي في التربية العربية اعتبر لدى البعض سببا لما نحن فيه ربما تأثرا بتلك الدعاوي الغربية التي تربط الإسلام والمسلمين بالإرهاب، فانطلقت الأصوات وامتدت الأيدي بالحذف أو التعديل في منظومة القيم الإسلامية التي يجب أن يربي عليه الفرد استجابة لمطلب العصرنة أو مخافة الاصطدام مع الغرب وخاصة الولايات المتحدة.

وحتى الإبداع العربي بمعناه الشامل أصابه الوهن فتعطلت ملكاته وانقطعت به السبل عندما اجتر ما يبدعه الآخرون ظنا من العقل العربي أنه أسهم في إبداع الآخر، ولعل أجواء الحرية ومساحاتها الضيقة أوصلت الذهنية العربية إلى مثل هذه الحالة فلا إبداع بدون حرية وبدون حافز وبدون انتماء وبدون تقدير.

ومع هذه البدونات وجدت بيروقراطية شديدة العداء للإنجاز، فتاه وسط هذه الحلقات باحثون ومبدعون ومبتكرون وقتلت مشاريعهم في مهدها ولننظر إلى حال البحث العلمي في بلادنا لنعلم إلى أي درجة وصل الإبداع والابتكار ولننظر إلى ما يسمى هيئات براءة الاختراع لنرى أكداسا من الأفكار وركاما من المشروعات المعطلة غطاها غبار النسيان.

وهنا تقفز إشكالية هجرة العقول العربية التي أجهدنا أنفسنا في رصد أسبابها والتخوف من نتائجها، مع أننا نعرف في قرارة أنفسنا أن العقول كأسراب الطيور التي تهاجر بحثا عن أجواء تحتضنها أكثر حرية وحفزا.

أما الأدب العربي الذي هو أكثر التصاقا بالذهنية العربية وأقرب الأدوات من صياغة معالم هذه العقلية بجماليته التي يخلقها في الوجدان وأفقه الذي يوسع به النفوس، فقد رضخ هو الآخر لاستحقاقات المرحلة وما عاد يبشر بعهد جديد واكتفى بأن يبكي على أطلال القدامى وإبداعات السابقين.

فالشعر العربي المعاصر قد انسحب أو كاد من مواقع كان يتصدرها ويحرك من خلالها كوامن الجماهير ويحيي ما مات من مشاعر ويغدو تحت وطأة الأحداث صوت الأمة وضميرها.

وما يدفعنا لهذا القول إن تلك المرحلة من مسيرة الأمة التي تمر بها هي من أخطر وأدق المراحل المأزومة والمهزومة التي مر بها تاريخنا القديم والحديث على السواء، وعلى الرغم من خطورة المرحلة فقد سرى نوع من التخدير في بحور الشعر العربي حتى باتت ضحلة راكدة ولم تصل إلى مستوى النهر أو الترعة في لغة الريف المصري.

فقد تحول بيت الشعر إلى أطلال بعد أن غطاه غبار المهانة ووطأته الزحافات والعلل بل المدرعات والأساطيل.. فأين ربة الصهوة قصيدته شاهرا أبياتها التي تزلزل بإيقاعها وأوزانها القلوب وتحرك بمفرداتها وصورها الأفئدة؟! س

أغلب الظن- وبعض الظن إثم- أن الشاعر مثله مثل الفيلسوف والمبدع وصانع التربية قد انسحب من ميدانه وارتمى في أحضان حداثة غامضة وغربة عارضة وتنظيرات نقدية شائكة وترك الساحة لغيره يحلل ويصوغ بدلا منه ملامح المرحلة.

وربما يقول قائل- وقد يصدق- إن زمن الشعر ولى ولم يعد للعرب ديوانه ولا إيوانه، وربما يقول غير هذا القائل- وقد يصدق- كفانا كلاما وغناء وبكاء ورثاء.. وهنا نقول في حسرة وهل نملك سوى الكلام نزخرفه ونهمهم بحروفه وننفث به كربنا

وأحزاننا؟! ونخط به حدود الوطن المنهوب والمسلوب والمنتهك، ونحتضن بـه جمـوع المنكسرين هناك في فلسطين وهنا في العراق، ونفيض به دمعا يذوب حزنـا في مجـرى الرافدين.

ومن عجب أن العراق ببغداده وكوفته وبصرته ومياه رافديه قد روى شـعرنا وأدبنا العربي ونحونا وفلسفتنا بل وجموع ثقافتنـا بـآراء علمائـه واتجاهـات مدارسـه واختلاف تياراته.. فهل امتدت يد تزيل هذا الرافد مـن بـلاد الرافـدين، وهـل تـآمرت قوى تحاول قتل ليلى المريضة في العراق منذ أكثر من عشر سنوات؟!

فلم تشـهد بلـد عـلى أرضـها قامـت حضـارات عرفـت بهـا الإنسـانية معنـى الحضارة والرقي مثل العراق، ولم تشهد في ذات الوقـت بلـد مـن نكبـات وانتكاسـات أدمت القلوب وأسالت العيون مثل العراق.

ففـي مـدنها وعـلى ضـفاف نهريهـا اسـتكملت الحضـارة العربيـة الإسـلامية مقومات وجودها فقد شهدت حراكا ثقافيا وفكريا أوجد تلك العلوم والمعـارف التـي ما زلنا نتدارسها إلى الآن، وصحيح أن نكبة العـراق ليسـت الأولى في عصرـنا الحـديث والمعاصر وربما لا تكون الأخيرة ولكنها في الوقت ذاته تصـلح كمـدخل جديـد لإعـادة صياغة العقلية العربية أو إعادة ترميمها وإصلاح ما اعتراها من قصور.

والعهد الجديـد الـذي يجـب أن تعمـل عـلى صـياغته المجتمعـات والأمـم لا يرتبط فقط بانتصارها أو نجاحها بـل هـو وقـت الهزيمـة والفـوضى أولى بـأن يطـرح، وهذا ما يخبرنا به التاريخ الذي أكد أن النجـاح يخـرج مـن رحـم الفشـل وأن النظـام وليد الفوضى والصخب وأن التقدم نتاج التراجع والتخلف.

فأوروبا بعـد عهودهـا المظلمـة وعصـورها الوسـطى اسـتلهمت روح العمـل والنهوض واستفاقت من كبوتها وحررتها طاقاتها ودشنت عصور العلـم والتكنولوجيـا والثـورة الصـناعية.. وألمانيـا واليابـان بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة خرجـت كلتـاهما مجروحة وممزقة أشلاء في وضعها السـياسي والعسـكري والاقتصـادي والنفسيـ أيضـا، لكنهما لملما جراحهما ولعقا مهانة الهزيمة طلبا لكرامة النصر والتميز.

وفي تاريخنا العربي والإسلامي تتجلى هذه الثنائية بكـل وضـوح حيـث كانـت تستقوي الأمة بعد هزيمتها أكثر مما كانت بعد انتصاراتها، فلم يخرج صلاح الدين ولم تنجز حطين إلا بعد عقود من الوهن والفوضى والاضطراب الذي نخر في عظام الأمة.

وهذا ما فطن إليه أعداء الأمة الذين حـاولوا تكـريس الهزيمـة وتحويلهـا إلى أمر واقع، وهذا التكـريس يـتم بشـكل أو بـآخر الآن في لحظـات الصـدمة والـذهول، فالمريض في أول مرضه قد يكون سببا في استقواء المرض عنـدما يصـاب بـوهم المـوت فيذبل وينذوي ويتعطل جهازه المناعي، لأن الإقرار بالمرض والاستسلام له أشد خطورة من الناحية النفسية من المرض ذاته.

وجهاز الأمة المناعي هو فكرهـا وإبـداعها ولـيس نظامهـا السـياسي أو قوتهـا العسكرية، لأن نظاما بلا فكر هو ضرب من الخـواء، وجيشـا بـلا رؤى محكـوم عليـه بالفناء، ولهذا يستشعر الآخر- العدو أحيانا- موضع الخطر لا من الأنظمة أو الجيوش العربية بقدر مـا يتخـوف مـن سـطوة الفكـر وتنظيمـه وصـحوة الإبـداع وتجييشـه، فمنظومة الفكر وأطر الإبداع هـي التـي تعيـد وجـود الأمـة وتقويهـا عنـد الانكسـار وتعززها عند الانتصار.

ولا نشك أن الآخر الذي يمثل الطرف المقابل في الاحتكاك والصراع الحضـاري قد امتلك كل مقومات الاستعلاء وعوامل القوة التي تجلت بوضوح في حقب تاريخية سابقة وفي شكل استعماري بغيض كبل الجسد العربي والإسلامي عقودا طويلة، أرهقه وأضـعف بنيتـه السياسـية والاقتصـادية وأفـرز في الوقـت ذاتـه نوعـا مـن التبعيـة والاستلاب الثقافي.

ولعلنا نشهد الآن مرحلـة جديـدة مـن هـذا الاسـتعمار الـذي يحـرك الأقـلام متزامنة مع الصواريخ ويطلق الأفكار في وقت انطلاق الرصـاص ويحتـل العقـول كـما يحتل الأرض، ليجعل في النهاية الإنسان العربي مستعمرة تسير على قدمين.

ولسنا ننكر أن أحداث الحـادي عشرـ مـن سـبتمبر في الولايـات المتحـدة قـد عجلت بهذا النهج وأسرعت به نحو التطبيـق هنـاك في أفغانسـتان وهنـا في العـراق.. لكن الحقيقة

التي ينكرها الكثيرون أن هذا النهج كان متبعا قبل تلك الأحداث بل كان يسير على نحو دقيق وما كان يخفيه هو غطاء التواصل الحضاري ووهم التعايش السلمي.

وقد كان من تجليات هذا النهح وتأثيراته على الذهنية العربي أن رأينا من يروج للاستعمار الجديد ويرى فيه مخلصا ومنقذا من تلك الحالة التي استبدت بتعالمنا العربي والإسلامي، وربما نتلمس العذر لبعض هؤلاء الذين رأوا أن النظام العربي قد تآكل وتكلس واستغرق في تبعية فجة.

لكن الحقيقة أن هؤلاء الذين بشروا بالاستعمار كانوا كما قال المثل قديما كالمستجير من الرمضاء بالنار.. أليست حقب الاستعمار المتعاقبة قد أوصلتنا لعهود من التخلف والجهالة؟! أليست الإشكاليات التي غرق فيها عالمنا العربي والإسلامي واستمرت معه حتى الآن من صنع الاستعمار كإشكاليات الحروب والصراعات والخلافات على الحدود وحتى الأزمات الاقتصادية والسياسية؟!

ولهذا الاتجاه النظر للاستعمار والمروج له خطره على الأمة وعلى بقائها واستمرارها إذ أنه يعوق تقدمها مهما كانت إغراءات التبعية، وقد قال بذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عندما أكد في الفصل التاسع عشر على أن عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم وفسر ذلك بأن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها واعتبر أن هؤلاء المنقادين إذا عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة.

ولهذا رأينا ابن خلدون يحذر من تلك الحالة التي يصل إليها هؤلاء المنقادون وهي التأثر الشديد بأحوال الغالب عندما أكد على أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

وقد وصلنا إلى تلك الحالة التي تحدث عنها ابن خلدون وربما سنصل إلى أسوأ منها مع هؤلاء المبهورين بغلبة المنتصرين في العراق، وهذا الأسوأ قد بدأ فعليا حتى قبل الحرب عندما دخلت إسرائيل في أطراف المعادلة لتجني الثمار الحقيقية لما حدث في العراق تطبيعا وهيمنة وتفردا بالمنطقة واستيلاء وتوجيها للعقل العربي حسب المسار الذي يراد له.

فالقضية يجب ألا تطرح بشكلها الحالي استعمار غربي متكالب في مقابل نظام عربي متآكل بل يجب أن تطرح أولا وأخيرا على مستوى الفكر بكل تداعياته وتجلياته، ففيه الأزمة ومنه الحل، وفي اعتقادي الجازم أن خروج المنطقة من أزمتها هو بتحرير العقل وفك أسره ليصوغ عهدا جديدا.

وهذا المشروع القادم والعهد الجديد لن يأتي من فراغ بل هو في حالة اتساق وتواءم مع مكتسبات الماضي ومعطيات الحاضر- أو هكذا يجب أن يكون- فلا يجب أن نبني نسقا فكريا جديدا كل الجدة ومعزولا عن تلك المقومات الحضارية التي توافرت للعرب والمسلمين في عصور سابقة.

وتلك ليست دعوة للماضوية أو الانكفاء والارتداد بعيدا ما هي دعوة للارتكاز على أصول والبحث عن جذور والاستناد إلى دعائم.. وبدون هذا التأصيل والتجذر والتدعيم لن تتحدث معالم هذا المشروع.

صحيح أن محاولة إحياء وتجديد أي مشروع حضاري رهين بظروف وعوامل متشابكة ومعقدة ومختلف عليها إلا أن المتفق عليه أن يرتكز هذا المشروع على قاعدة فكرية ينطلق منها وينجز من خلالها، ولست أعني بهذه القاعدة الفكرية أطرا أيديولوجية ضيقة تتحول مع مرور الوقت إلى سجون ومعتقلات ومقابر جماعية.

ولعل هذا ما حدث مع الكثير من الديكتاتوريات التي اقتاتت على موائد الأيديولوجيا وحاولت أن تقمع به الجماهير بل وتقنعهم بجدوى تلك الأيديولجيات.

إن القاعدة والنظام الفكري الذي نطالب بها هو الذي يوصلنا إلى عمل وليس إلى شعار إلى أمل وليس إلى وهم.. إنها قاعدة تصاغ من فلسفة شاملة تبني العقل العربي على حرية الفكر، ومن تربية إسلامية تربي الفرد والمجتمع، ومن أدب يحرك الوجدان ويؤسس الذوق، ومن ثورة علمية منهجية تنجز وتطور.

ولعلنا نحس الآن أكثر من أي وقت مضى بضرورة البحث عن معالم هذا المشروع على الرغم من هذه الانتكاسات والتراجعات العربية وحالة الوهن والذهول التي استبدت بجمهور الناس في بلادنا.. لكن الحقيقة أنها فرصة سانحة بل وملائمة لمثل هذا المشروع.

وهذا ما ذهب إليه الكثيرون ومنهم أرنولد توينبي في نظريته حول مولد الحضارات عندما أكد على أن الحضارة تعود في مفهومها وطرائقها إلى ظروف قاسية بل هي وليدة لأزمات تجعل الأمة تختار بين أن تبقى أو أن تزول، فالنمط الشامل الذي يتحكم في ميلاد الحضارات واستمرارها هو نمط التحدي والاستجابة Challenge and Response ويعتبر أن الحضارة ليست نتاج ظروف ملائمة فقط مثل التربة التي يخرج منها النبات، بل إنها من الممكن أن تنمو وتزدهر في ظل ظروف صعبة تثير قدرا كبيرا من النشاط والفعالية، فكلما قابل الناس تحديات أكبر باستجابات أكبر فإن حضارتهم بلا شك تنمو وتزدهر.

وتوينبي لا يقصد فقط الظروف الطبيعية وتحدياتها للإنسان بل إنه يعني كل ما يمكن أن يمثل تحديا طبيعيا أم سياسيا أم اقتصاديا أم عسكريا.. ومن أروع ما طرحه في كتابه دراسات في التاريخ A Stady Of History أن الحضارات لا تموت بسبب الضربات والتحديات الخارجية بسبب الجراح التي تلحقها بنفسها.

ولهذا نقول إن حال الأمة يحتاج إلى ذلك التحدي الذي يخرجها من رحم الأزمة التي وضع فيها بظروف الحرب على العراق وهي جزء حيوي من الأمة ومن حدوث الاحتلال الأمريكي وزيادة النفوذ الصهيوني، فالتحدي قد يولد الطاقات والعجز قد يتحول إلى إعجاز، وهذه حقيقة من حقائق التاريخ البشري، أليست الحكمة المتداولة تقول (الحاجة أم الاختراع).

فعندما يحترق المنزل بأسباب خارجية أو داخلية فإن على ساكنيه- إذا خرجوا أحياء- أن يعيدوا ترميمه وربما بناءه من جديد مع احتفاظهم بثوابت المكان وحقائق التاريخ، تلك هي الرؤية التي من الممكن أن تتحول إلى مشروع إذا أخلصنا النوايا وقابلنا التحدي الكبير باستجابة أكبر.

وما أحوجنا الآن بعد هذه المتغيرات التي عصفت بنا أن نعود إلى أنفسنا نبحث فيها عن معالم هذا المشروع قبل أن تغرقنا مشاعر الحسرة والذهول وتوصلنا في نهاية الأمر إلى تكريس حالة المذلة والانقياد التي تحدث عنها ابن خلدون.

***الهوامش:

1- انظر كتابنا (التغلغل الصهيوني في الثقافة العربية) وهو دراسة ترصد الطريق والوسائل التي استطاعت بها الصهيونية الدخول وبعمق إلى داخل التركيبة السياسية والمشهد الثقافي العربي منذ عام ألف وثمانمائة وحتى تأسيس الكيان الإسرائيلي عام (1948م).

2- صدر القرار رقم (1483) بتاريخ (22مايو 2003م) وقد نص على إنهاء العقوبات المفروضة على العراق منذ عام (1990م)، وكانت الولايات المتحدة قد قدمت في (9مايو 2003م) مسودة لقرارها والذي رفضته فرنسا وروسيا وألمانيا لكن بمزيد من الضغوط السياسية والدبلوماسية وبعض التغييرات الشكلية حيث تم تعديل القرار لأكثر من تسعين مرة لكنها تعديلات لا تمس جوهر القرار، وجرى التصويت على القرار في صورته النهائية ونال أربعة عشر صوتا ومن ضمن الدول التي صوتت للقرار فرنسا وروسيا العضوين الدائمين اللذين يملكان حق النقض (الفيتو) وصوتت ألمانيا العضو غير الدائم في مجلس الأمن، وطبعا ساندت الولايات المتحدة حليفتها بريطانيا وأسبانيا وقد غابت سوريا عند التصويت ثم أيدته في اليوم التالي لينال الإجماع.. والقرار يلغي جميع قرارات مجلس الأمن السابقة ذات العلاقة بموضوع الملف العراقي، وأهم ما تضمنه هذا القرار:

1) رفع العقوبات.
2) منح قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية صلاحيات واسعة لإدارة اقتصاد العراق ورسم ملامح نظامه السياسي.
3) إنشاء صندوق تنمية العراق الذي يعمل تحت إشراف البنك المركزي العراقي وتودع فيه أموال تصدير النفط العراقي.
4) حق الرقابة من مجلس الأمن لتنفيذ القرار في خلال عام.

3- جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد أقدم بكثير من تأسيس الكيان، إذ أنه واكب بروز الحركة الصهيونية عام (1897م)، وقد قام هذا الجهاز بدور كبير في خدمة الكيان خاصة مع الدول العربية، فمثلا استطاع الموساد أن يحصل على مخطط دقيق

للعمليات الحربية للجيوش العربية السبعة قبل دخولها إلى فلسطين عام (1948م)، وحدث نفس الشيء في مصر حتى قبل قيام ثورة يوليو (1952م) عندما كانت تزرع عملائها هناك سواء من اليهود المصريين أو الأجانب، ومن المعروف ما قامت به هذه الخلايا من عمليات تخريب وتدمير، إلا أن أهم ما كانت تقوم به الموساد كان وقت الحروب مع الأطراف العربية، ودورها كان واضحا في حرب (1967م) عندما نشطت في جمع المعلومات عن إمكانات وقدرات الدول العربية الاقتصادية والعسكرية وتسليحها وتنظيمها... وملف الموساد متسع وكبير إلا أننا ضربنا هذه الأمثلة لنبين سهولة عمل هذا الجهاز في الوقت الراهن وفيما بعد.

4- مجموعات الضغط Pressure Groups أو مجموعات الغايات Imtrest groups أو اللوبي The glby تعني مجموعة من الأشخاص أو المنظمات التي تقوم عادة بممارسة الضغوط على السلطات التشريعية أو السياسية لحملها على اتخاذ قوانين وقرارات سياسية تخدم مصالح وغايات تلك المجموعة، وهذه المجموعات لا تستطيع أن تشكل لوبي إلا بعد أن تأخذ إذن رسمي من وزارة العدل الأمريكية.

5- العهد القديم The Old Testament يتكون من مجموعة أسفار تختلف في الطول وفي النوع وقد كتبت على مدى ما يربو من تسعة قرون أو أكثر بلغات مختلفة واعتمادا على التراث المنقول شفويا، وهذه الأسفار ثلاثة أقسام الأول هي التورارة The Torah التي تضم خمسة أسفار تعرف بأسفار موسى The Pentateuch وهي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية والقسم الثاني (أسفار الأنبياء) وتضم أسفار الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، والقسم الثالث (الكتابات) وهي في معظمها مجموعات أدبية وأمثال واستعراض لتاريخ الشعب اليهودي منذ دخوله إلى أرض الميعاد حتى النفي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد.

6- التلمود: هو روايات شفوية تناقلها الحاخامات ويعد مرجع اليهود للتعاليم والعبادات والأخلاق والمعاملات، ويعود الفضل في جمع رواياته وشروحه إلى الحاخام يوخاس سنة (150م) وإلى يهوذا بن سيميون بن جاماليل (135-217م) والتلمود يتكون من (المشنا والجمارة) أما المشنا Mashnah ومعناها الشريعة المكررة أو تفسير لتوراة

موسى، وتنقسم إلى ستة أقسام رئيسية Sedarim وتصنف حسب الموضوعات وكل موضوع بدوره ينقسم إلى مقالات أو نسخ Messachet ومجموعها ثلاثة وستون مقالة، وهذه الأقسام الستة هي (الزراعة، الفصول والمواعيد، النساء، الجروح والجنايات، المقدسات، قسم الطهارة) وقد ظلت المشنا مفتوحة للزيادات حتى العصر الحديث، وأضاف موسى بن ميمون (1135- 1204م) إليها الكثير متأثرا بالفقه الإسلامي لأن المشنا بمثابة الفقه اليهودي ومكانتها تلي التوراة عند اليهود وقد تسبقها، أما الجمارة Josefto وهي الجزء الثاني من التلمود فقد أضيفت إليه وهي تهني الإضافات وهي قليلة الأهمية عند الكثير من اليهود وقد جمعت بعد ثلاثمائة عام من اكتمال المشنا.

7- معركة هرمجدون أو أرماجدون Armageddon والكلمة تعود في أصلها إلى العبرية حيث يعني المقطع الأول (هر) جبل، ويعني المقطع الثاني (مجيدو) الذي يشير إلى وادي بفلسطين، وقد ورد الإشارة إلى هذه المعركة في مواضع من الكتاب المقدس ففي سفر الرؤيا (16/16) وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها في مكان يسمى هرمجدون ويعتقد من يؤمنون بهذه المعركة من المسيحيين أن المسيح سينزل بعد حدوث هذه المعركة النووية ليأخذ أتباعه ويعيش معهم بسلام لمدة ألف عام قبل قيام الساعة.

8- الكونجرس The Conngress أو السلطة التشريعية في الولايات المتحدة يتألف من مجلس الجيوخ The Sinate ويمثل كل ولاية من الخمسين في هذا المجلس عضوان أو شيخان أيا كانت مساحة الولاية أو عدد سكانها، فيكون عدد الأعضاء مائة عضو، وتستمر العضوية لمدة ست سنوات وتجري انتخابات لثلث الأعضاء مرة كل سنتين، وقد ينتج عن هذه الانتخابات فوز أغلبية من الحزب الجمهوري ضد رئيس ديمقراطي أو قد يحدث العكس، ورئيس مجلس الشيوخ هو نائب الرئيس الأمريكي، أما مجلس النواب The House Of Representatives فهو يتكون من أعضاء ينتخبون لمدة سنتين وفي دوائر متساوية جغرافية ولهذا يتراوح يختلف عددهم حسب عدد سكان كل ولاية.

9- وضع دستور الولايات المتحدة الأول في عام (1787م) ووضعه ما اصطلح عليه بالآباء المؤسسين وهم الرعيل الأول من الرواد القانونيين والسياسيين، وقد تعرض هذا الدستور لتعديلات كثيرة في فترات مختلفة، إلا أن ما يهمنا هنا هو أن المادة (2) من الدستور تنص على أن (السلطة التنفيذية منوطة برئيس الولايات المتحدة) لكنه الرئيس في الوقت ذاته يضطلع بجانب من السلطة التشريعية عندما يصدق على القوانين قبل نفاذها وتطبيقها، وكذلك تتدخل السلطة التشريعية في بعض ما هو ممنوح للسلطة التنفيذية فعلى الرئيس أن ينال موافقة الكونجرس عن تعيين بعض كبار الموظفين أو إبرام بعض المعاهدات الدولية.

10- أما نائب الرئيس فالبعض يعتبر هذا المنصب تافها لا قيمة له، والوظيفة الممنوحة له حسب الدستور هي رئاسة مجلس الشيوخ بدون أن يكون له حق التصويت ما عدا حالة تعادل الأصوات وفرصته الوحيدة في أن يكون رئيسا بدون انتخابات هي في موت الرئيس أو في عدم قدرة الرئيس على القيام بمهام وظيفته.

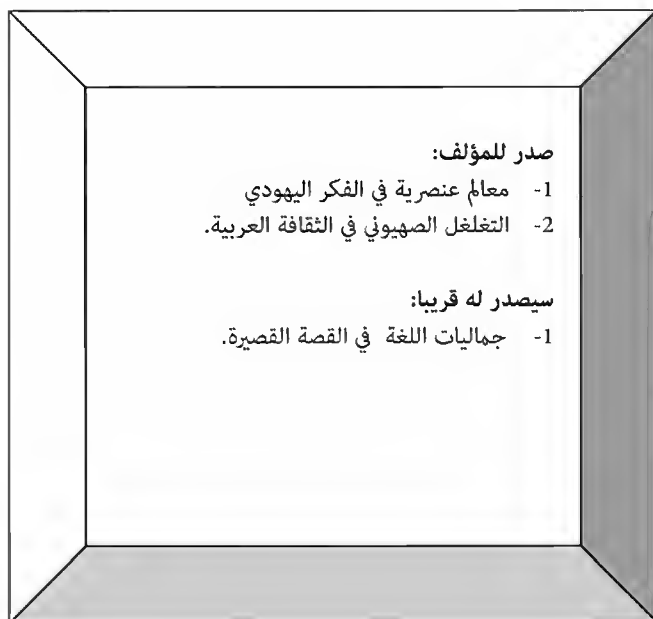
11- فضيحة إيران كونترا أو إيران جيت وهي الفضيحة التي ظهرت في منتصف الثمانينات في عهد الرئيس ريجان حيث كانت تباع الأسلحة سرا إلى إيران لتمويل متمردي الكونترا في نيكاراجوا.

12- ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن جيحان: نهر بالمصيصة بالثغر الشامي ومخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفر بيا واستدل ببيت المتنبي:

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثا أدناك ركض وأبعدا

وقد فرق ياقوت بين هذا النهر وبين جيحون وهو نهر في خراسان ويسمى نهر بلخ.

فهرس



صدر للمؤلف:

1- معالم عنصرية في الفكر اليهودي

2- التغلغل الصهيوني في الثقافة العربية.

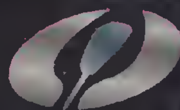
سيصدر له قريبا:

1- جماليات اللغة في القصة القصيرة.

تم بحمد الله



الحرب على العراق



دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - تلفاكس : 4647447 ص.ب : 141781

الإدارة : 5658253-5658254